سميرة عزام

أشياء صغيرة

قصص



دار العلم للملايين
بيروت
١٩٥٤

سميرة عزام

أشياء صغيرة

دار العلم للملايين
بيروت

١٩٥٤

الطبعة الاولى

بيروت ، شباط ، ١٩٥٤

الأشياء الصَّغيرة

هل ذهبت بعيداً ؟

لا تدري ، ولا تريد أن تدري بالضبط ! كل ما تريده هو ان تعيش في هذا الاحساس ،وان تستبقي طويلاً هذه المشاعر الحلوة، ان تأخذ معها الى محارتها شيئاً جديداً مختلفاً ! فكل شيء في وجودها يبدو قزماً امام هذا الاحساس، حتى ابوها وامها وعمتها ومعلماتها !

ليذهبوا الى ابليس جميعاً !

ما ازهدها في ساعتها بمواعظهم ! ستسمعها بعد الآن في صبح ومساء، وكلما اختلفت الى مكان او تخطرت في درب، فتبتسم برثاء، وتتفلسف بهزة رأس ، وتنكر اذناها وقلبها ونفسها ما تسمع حتى لتسخر من قيمها القديمة .

هؤلاء لا يفهمون ، اما هي فقد بدأت تفهم ! ولن تتأذى بعد من مزاح تناله به الرفيقات اذ يقلن: «انت يا هذه حمقاء تعيش بعقلية ابيها وامها وعمتها العانس ! »

حقاً لقد كانتهم ، ثلاثتهم ، ولكنها الآن انسانة متجددة الاحساس ، وستبني وجودها بعد اليوم ، بحسها ، بارادتها ، لا بقولهم — ابيها وامها وعمتها العانس — لا تكوني كالآخريات الرعناوات فأنت غير اولئك اصلاً ونبتاً ، انت ، وانت . .

في الغد ستجتمع رفيقات الدرس عند السنديانة المنخوبة ، ويتحدثن في اشياء كثيرة ، وستمتد الايدي في حذر إلى الجيوب فتخرج بالرسائل المعطرة فتتفتح لها عيون الصبايا وقبلها قلوبهن .. وللمرة الاولى سيكون لها ما تقوله اذا شاءت ان تقول ، فلديها منه حكايا وحكايا . وحتى لو صمتت – ولا يبعد ان يقعد بها الخجل فتصمت – فلن يكون صمتها صمت المقصر بل صمت الضنين ،وهي – لنفسها – ستحكي الحكاية بدقائقها الصغيرة التي تعيها جيداً ، فلطالما استعادتها كلما القت الى مخدتها رأساً او قبعت تحلم في زاوية الحافلة او سرحت في الدرس فلا تسمع منه إلا صوت الجرس .. وتلك صورته قريبة ، تستدعيها كلما أرخت جفناً ، فتوافيها مختلطة اولاً ، ثم تتضح وتتميز ،وتتبين جيداً الجبهة الملوحة السمراء والعين البنيّة الداكنة والابتسامة التي هي أحلى ما في الوجه .

بودها لو تمر بها ساعة تكون معهن في حلقة الشجون فتصيح ولا حرج : « إنه » !

ما اكبره في وجودها !ولكن مايعني رفيقاتها منه الا فضولهن في ان يعرفن هذا الواحد الذي جعل من العنيدة المكابرة التي كانتها انثى سخيفة مثلهن !

وما عساهن قائلات لو عرفن ان عنادها قد تزحزح ،منذ طالعها الوجه الاسمر للمرة الاولى في السيارة العامة ؟

سيضحكن منها بلا شك ، وسيدركن انها مثلهن انسانة تحس ، وتتدله ! ألم يسمينها اللوح ؟ وكانت تشيح بكبرياء وتتعزى بقول امها وابيها وعمتها ابانها ليست كالأخريات لانها نسيج مختلف وعنصر

احسن صفاء ، ومثلها تكون الفتيات .

ما كان أحمقها !!

كانت المرة الاولى في سيـــارة الاجرة . دخل وجلس الى جانبها ولم يلتفت اليها ، ولكنها رأت صورته في المرآة المثبتة امام السائق ، فأحبت لون شعره وشكل شفته السفلى ! ونزل هو من السيارة قبلها وذهبت هي الى الكلية ونسيت وجهه ..

وكانت الثانية في احد محـال بيـع المرطبات .. ظمئت مرة فدخلت بكتبها تطلب شيئاً ، وكان هنـــاك ، ولم تلتفت اليه . وشربت شرابها ودفعت للبائع بالثمن يقتطعه من ورقة نقد كبيرة ، فاعتذر بعدم وجود « الفكة » ، فاتجهت للفتى تستبدل الورقة ثم دفعت ثمن الشراب ! واعجبها انه لم يتطوع ليدفـع الثمن عنها كما يفعل غيره من الرقعاء !

والمرة الثالثة كانت في دار الكتب ، قصدتها لتقرأ فصولاً مقررة من « العقد الفريد » ، فوجدته مكباً على كتاب (لعله مثلها من طلبة الآداب) وانصرفت الى كتابها ولما رفعت رأسها ضبطته يحدق الى وجهها . فلم تبتسم له .. ولكن سرها ذلك منه .

وكانت الرابعة والخامسة والعاشرة في دار الكتب ايضاً ، على غير موعد . وكانت قد انتهت من « العقد الفريد » .. ولكنها ظلت تذهب تقرأ في « العقد الفريد » . وكانت تذهب في كل مرة وفي نفسها شوق لأن تراه هناك ! فما ان تدخل وتطمئن الى وجود رأسه فوق الكتاب حتى تتنفس بارتياح ، وتخف خطوتها وهي تأخذ سبيلها الى مكانها المختار .

ولم تنس مرة انها ليست كالأخريات، وانها كما تقول امها وابوها وعمتها العانس، نسيج خاص، فكانت تحييه تحية رزينة، ثم تنصرف الى الكتاب انصرافاً قلقاً، وتقرأ فلا تفهم في يسر، وتنتفض بعصبية ثم تنظر إلى الوجه الاسمر القريب نظرة مسروقة .

ورأته مرة يتململ ويغلق كتابه، فنهضت وسارعت تسلم الكتاب الى قيّم المكتبـــة لتسبقه إلى الدرج ، ثم سمعت خطوه وراءها، واحست به قربها، وابتسم لها ونزلا السلم معاً واتجها معاً، ايضاً الى الحافلة، واستأذنها في الجلوس إلى جوارها، وأصر على ان يدفع ثمن تذكرتها فعارضت ، ثم اسكتتها ابتسامة منه فيها بعض سخرية .. وفي الطريق عرف منها اسمها واسم المعهد الذي تنتسب اليه ، كما عرفت منه اسمه ، وعرفت ايضاً انه لم يكن طالباً كما توقعت ..

ولقد احبت اسمه ..

كما سرّها ألا يكون طالباً .. غراً ..

ولما افترقا .. احست ببعض قلق . شعرت بانها جاملته اكثر من اللازم، وخشيت ان تكون بعض عيون فضولية قد رأتها معه ولكنها في اعماقها استكانت إلى شعور غريب ..

وكثيراً ما رأته بعدها على غير موعد .. وكانت مؤمنة بان المصادفة وحدها هي صاحبة الدور .. فما هي بالخفيفة، ولا هو من الطائشين .. فالتعمدُ هنا شيء تستبعده من الحساب ..

وقفت مرة الى كوة التذاكر في احدى دور العرض وابتاعت تذكرة ولما استدارت رأته خلفها ينتظر دوره فخفض لها رأسه في تحية ، وسارعت هي بالدخول واخذت مكانها قلقة مضطربة بعض

الشيء ، وما لبث ان جاء وجلس في المقعد المجاور .. وراحت تفكر في هذه الحركة.. هل تعمّدها ام هي المصادفة ؟.. المصادفة المحض التي باتت من جانبها تؤمن انها أحكمُ من ان تكون مصادفات وقد تكررت.. اذن لمَ يحاول هذا الانسان ان يلاحقها ويهتم بها؟ ان كان يفعل هذا عن قصد وتدبر ، فستصده في حزم وتلزمه حدوده ، فهي ليست كالاخريات .. وهي غيرهن نبتاً ونشأة .. وهي ذات مبادىء ما ارخصتها قط .. وهذه امور تنكرها عليها تربيتها وابوها وامها وعمتها . وهي .. وهي ، وتجاهلته فلم ترفع له عيناً ولكنها لم تملك الا ان يغوصَ قلبها حين نهض الى بعض امره ، وما لبث ان عاد ببعض الحلوى وقدّم لها فاعتذرت ولم يقل لها شيئا .. وابتسم ابتسامة تشرق على قسماته السمراء وأكلها — اللئيم - وحده .

وبدأ العرض وتزاحمت الصور فأعطتها عيناً بلا فكر ،إذ شُغلت عنها بهذا الذي الى جانبها .. لمَ جاء ؟ .. وما يريد منها ؟ .. لم لا يحاول ان يبدأها بالحديث ..؟ تراها كانت فظة قليلة حظ من الذوق حين اعتذرت عن حلواه ؟ . ما اسخفها ! وماذا لو اكلت وقد قبلت منه مرة ان يدفع ثمن تذكرة الحافلة ؟ انهما متعارفان تماما . او لا تعتبر تلك الجلسات في جو رزين تعبق منه رائحة الكتب كافية لان تطمئن الى صحبة هذا الفتى المهذب اللطيف ؟

اي شعور يثار فيها كلما كان منها قريباً ؟.. اهو قلق ..؟ اهو اضطراب ..؟ اهو انتشاء ..؟ اهو سرور أم غضب ..؟ أم هي كلها .. مجتمعة ??

واحست بعينيه رغم العتمة تحملقان في وجهها ، فخفق قلبها في عنف وما عادت تتبين من الشاشة الا ظلالاً .. اي وقح هذا ! . لو تمادى فستصرخ فيه ، و .. احست بيده تقترب من يدها ، واصابعه تسعى مشتاقة الى اصابعها .. فلم تسحبها . احست بها تتسمر الى المتكأ .. ومسح ببطن يده ظاهر يدها مسحاً رفيقاً ، ثم اخذ يدها بقبضته وشدّ عليها شداً عنيفا ، ولبثا هكذا الى ان اضيئت القاعة .. وغاظها ان تأتي النهاية سريعة هكذا .. فتخجل من نفسها وتزدري ضعفها .. وتنصرف دون ان تنظر الى وجهه ..

وفي تلك الليلة انكرت مخدتُها رأسها القلق ..

هل احبته ؟

لم يسبق لها ان احبت ، فأنى لمثلها ان تعرف إذا كانت هذه الهواجس حباً ؟ لو سألت إحدى صديقاتها المجربات فستحسن التشخيصَ وتستمرىء الافاضة .. ولكن لا .. ان الضعف لم يؤثر عنها ، ولا تريد ان يفهم الناس انها كالاخريات .. ذاتُ حماقات .. لو صدقت روايات الحب فهو ذا بحلاوته وقلقه يلم بها ليلاً ونهاراً ، ويستأثر بتفكيرها فتنسى مَن حولها إلا حين تطالعها الوجوه .. وتدعى الى الطعام فلا تصيب منه إلا القليل اليسير . . وتخلو الى الكتاب فلا ترى غير صورته .. وتزهد في شؤونها المختلفة وكانت قبلاً بها حفيّة .. فهي إذن كالبطلات .. بطلات الافلام والروايات ولو اختلف بطلها عن اولئك الذين تظهرنا السينما على حكاياتهم ، فلهؤلاء فراهةٌ في اجسامهم ودقةٌ في ملامحهم لينسب لفتاها .. فلو جلست من قبل ، فلحياتها بعد ان عرفته حدّان قبل وبعد — لو

جلست من قبل واطلقت خيالها كما تفعل كل فتاة، وتمثلت صورة لفتى احلامها لتمنت له عينين اكثر سعة وانفاً احسن دقة ولاختارت له ذقناً ذات ثنية ولما شاءته ممعناً في سمرة وجهه هكذا ..

ولكن باي حق تعتبره فتاها .. أقال هو ذلك لها؟ أتراه ينظر الى هذه الاشياء الصغيرة بنفس العين التي تبصرها بها ؟؟ ولو تعقلت واطرحت اوهامها لما بدا من ذلك كله شيء ذو خطر . اي غرابة في ان يحادثها فتى او يشتري لها مرة تذكرة وكثيرون غيره يفعلون هذا راضين لو سمحت ؟ . وماذا لو مست يده يدها في لحظة ضعف ؟ لا ، هذا وهم سمحت له بان يأخذ من نفسها اكثر مما يستحق فتضخم وضاقت به وضاق قلبها الصغير وأسمت المارد الذي خلقته حباً .

وعزمت بينها وبين نفسها ألا تفسح له في قلبها ونفسها ، وان تشيح عنه شأن الفاضلات من الفتيات .. والا فأي فرق بينها وبين اية رعناء ؟

واستراحت الى عزم ما لبث ان تهاوى .. حين رأته بعد ايام .. في الشارع . وثار فيها احساسها العنيف حين اقبل وعلى شفتيه احلى ابتساماته يحييها ويدعوها حفياً الى فنجان شاي .. فارتبكت وحارت فيما تقول ، ولكنها وجدت نفسها مسوقة بارادته تأخذ مكانها في المقهى الهادىء الجميل لتجد امامها فنجان شاي لم تعرف له طعماً .. ولا شك انها ما فتحت فمها في تلك الجلسة الا لتقول اشياء سخيفة تقطع بها حبل الصمت وتصرفُ بها عيني الفتى عن عينيها !

وانتهيا من شرب الشاي وقاما .. لا الى الشارع الذي يؤدي بهما الى دنيا الناس ،بل الى آخر يستقيم وينعطف حتى ينتهي بهما الى

فضاء . وسارا . . لا صوت ولا نأمة الا وقع اقدامها على الحشائش، يده في يدها وفي قلبها احاسيس تضطرم. وودت لو يعود بها ولكنها لم تطلب اليه ذلك . . وكأنما قرأ ما يجول في فكرها ،واحس بما يصطرع في قلبها، فجذبها اليه وقال : لا تخافيني فأنا احبك . .

ولم تقل شيئاً . . ما كان بوسعها ان تقول شيئاً . كانت شفتاه على شفتيها دافئتين . . رفيقتين .

هل ذهبت بعيداً ؟ .

لا تدري ، ولا تريد ان تدري . . كل ما تعقله وتعيه وتشعره احساس بالحياة جديد . . قد ولد فيها الساعة . . .

حکایتہا

أخي ...

كنت اوثر ان اظل شيئاً مجهولاً لديك . وان تظل بلا أخت يعذبك وجودها فلا يذكر اسمها امامك الا وتطأطىء رأسك استحياء وتودها لو لم تكن ... غير انني أبصرت بك قبل ايام تذرع حيّنا بخطوات مضطربة ، قلقة ، حيرى ، فعرفت وجهك القديم ، وقرأت عليه – من بعيد – قصة توقعتها ، فادركت بان «انبائي» نمت اليك وايقنت بان اللئيم «عوض» لم يدعك لنفسك فحكى لك حكايتي .. ولعله «عيّرك» فاسرف .. وجرح حساسيتك واثارك فصعد الدم الى رأسك ولم تتم ليلتها وليالي بعدها .. وجعت اسبوعاً او اسابيع لتوفر ثمن مسدس تفرغه في رأسي عند اول لقاء .. وصدق حدسي في ذلك كله حين رأيت اصابعـــك تتقبض على شيء في جيبك ..

انه المسدس بلا شك ..

أجل قدرت هذا كله لحظة ان تركت دار الايتام التي صرفت فيها حداثتك ثم غادرتها رجلاً صغيراً ابيض النفس والقلب والنظرة .. يسعى لعيشه سعي الكريم ، ثم شئت لنفسك سكناً يحتويـــك واشياءك القليلة فلم تجد امامك الا زقاقنا القديم حيث عشنا يوم كان والدنا على قيد الحياة . عندها توجست شراً وأدركت ان

«عوض» لن يدعك الا بعد ان يملأ رأسك بقصتي.. فللحيّ كرامة استعلت على عبث اللاهيات .. وهناك لطخة لا بد من ازالتها كما انه لا بد من رواية يتسلى بها الرجال وهم جلوس في المقهى حول اقداح الشاي الاسود ، ولا بد للنسوة من حديث يدير ألسنتهن الثرثارة كلما اطللن برؤوسهن من طاقة ، او تحلقن عند جارة ... وحكاية دسمة كحكايتي كفيلة بان تسلي الحي شهوراً بطولها ...

مسكين يا أخي .. أنا لا اشفق على نفسي من رصاصاتك الحمقاء فهي تريحني من اشياء كثيرة..وتضع نهاية لهذا الوجود الذي اتقيأه في كل لحظة ..ويريح اعصاباً قتلتها العواطف القذرة الرخيصة التي يستوي فيها كل حيوان عمرت جيبه بقروش شاء ان يشتري بها ذكريات ليلة حمراء ..

أجل أنا لا أشفق على نفسي بقدر ما اشفق عليك .. على العاطفة الوحيدة النظيفة في قلبي .. على عمرك الغض تخنقه جدران السجن اللزجات .

ألم يزد عوض يا ترى شيئاً على « اقتلها » ؟؟ ألم يحدثك بقصتنا يوم مات أبونا عن صغيرين أنا وانت .. كنت انا في الرابعة عشرة وكنت انت في الخامسة ... فبكته نسوة الحـــي بدموع التماسيح ، وشكرن الله ان راح زوجه قبله « فلم تشرب حسرته .. » واجتمع الرجال على واجب الاموات .. ثم انفضوا عن رحمـــة الاحياء ! هل حكى لك كيف اقبل علي في اليوم التالي وكان في نفسي شعور سابق بكراهيته اذ حاول ان يقبلني عنوة ذات مرة ، فشكوته لأبي فمضى اليه في مقهاه وبصق في وجهه الكريه واشبعه

اهانة ، اقبل يعرض خدماته فرددته بحزم ورفضت يده الممدودة بقروش ، وابيت عليه ان يتخطى عتبة البيت !

اما حكى لك قصة فتاة ليس لها من يأخذ بيدها في كون كبير موحش تخشى معه قدمها الصغيرة العثار في كل نقلة ؟ اذن دعني احكيها . دعني ، فحق المتهم ان يقول شيئاً قبل ان تنتهي عنقه الى حبل الرأي العام . كنا صغاراً يا اخي وليس لنا الا فقر تنهش انيابه جسدينا ، فتحركت ابحث عن عمل تقوى عليه يداي الصغيرتان .. سألت ورجوت ووددت فانتهى امري الى معمل حياكة قابلني صاحبه فقال : ارني يديك ،فمددتهما ،فقال آه .. اصابع رشيقة لا اشك في انك ستحسنين عملك ... اذهبي الى « كبرى البنات » لتدلك على نوع العمل ،فان أحسنته كان لك مني قروش خمسة في اليوم .

واستدرت لأذهب الى « كبرى البنات » .. فسمعته يقول اتدرين بان لك وجهاً جميلاً يا بنت ؟.. ولم اكن قبلها اعلم ان لي وجهاً جميلا ! ورأيتني بعدها وسط حشد من الفتيات كلهن نحيفات صفراوات تقوست ظهورهن الطريئة على الانوال وراحت اصابعهن تتحرك في اوتوماتيكية خالصة .

وقلدتهن فاحسنت التقليد واستحققت القروش الخمسة وفوقها ابتسامة من صاحب العمل الاكرش ، لم افهمها .

كنت اعمل طيلة النهار واتركك في رعاية « ام محمود » الطيبة الوحيدة في الحي ،ثم اوافيك مساء وفي يدي خبز وجبن وزيتون وفي قلبي لهفة وحنين ، فاسرع اليك لا يثنيني الا شبح عوض البغيض حين

يتصدى لي احياناً في المنعطفات العتمة فأمطره بسبابي، ثم اعدو تحثني مشاعر من حنق وخوف وتوجس .

واظهرت اجتهاداً فقفزت اجرتي في العمل من خمسة الى ثمانية فعشرة ... واثار هذا حفيظة الفتيات فاطلقن السنتهن من ورائي، وإخالني سمعتهن يقلن : «توقعنا ذلك منذ ان جاءت . . ان لها وجهاً ابيض مليحاً . . وعينين خضراوين . . الا ترونه يأكلها بعينيه ؟» واستهجنت حملتهن ولم ادرِ هل كان « المعلم » ، كما كنا نسميه، يأكلني بعينيه على حد زعمهن ... كان يلاطفني ، فعزوت ملاطفته الى لون من الحدب والاشفاق . واما الزيادة فقد كنت استحقها . . وفي ذات يوم اقبل يتفقد العمل ويجول بين صفوف العاملات . . فما ان بلغني حتى ربت علـــى كتفي وقال : « هلا لبثت قليلاً بعد انصراف العاملات . . فلي معك كلمة . . »

وصرفت بقية نهاري أفكر فيما عسى يريده مني . . ولفتني رعدة نزعت طمأنينة قلبي . فلما حان وقت الانصراف حاولت ان اتسلل مع الخارجات . الا أنني ابصرت بالمعلم على الباب فاشار إليّ بالانتظار فتلكأت . . وما ان خلا المكان حتى سحبني من يدي الى مكتبه ثم فتح درجاً اخرج منه زجاجة من العطر واسورة من الخرز الملون وقال : «هذه لك . . انني راض عن عملك . . فخذيها !»

ولم امد يدي، فشدني هو اليه . غير انني تملصت كالقطة الصغيرة، ثم نفذت الى الطريق من خلال الباب المفتوح . . وفي قلبي خوف طاغ من شيء غامض خفي، وعلى المنعطف رأيت «عوض» يطالعني بوجهه البغيض وابتسامته الصفراء ... ولعله كان ينتظرني فلما

استبطأني سأل العاملات عني، فما ان رآني حتى قال : « ترى لماذا استبقاك المدير من دون الفتيات..؟ هل .؟ لقد قدرت هذا يا..» واطلقها كلمة قذرة اهتز لهـــا كياني الصغير ، فركضت اليك مذعورة باكية .. فنظرتني انت بعيون حائرة ثم انفجرت تبكي معي .. فنمنا معا جنباً الى جنب ، وقد شددت جسدك الصغير اليّ كأنني احتمي بك من المعلم . من عوض . من الناس . من الاحاسيس التي تعصف بقلبي .

ولم اقصد عملي في اليوم الثـــاني . اردت ان استشعر الأمن ببقائي الى جانبك . ولكنني – وتحت إلحاف ام محمود التي راحت تستفسر عن سر امساكي عن الذهاب–وجدتني مكرهة على العودة. فعدت،ولحظني المعلم ادخل،فابتسم ابتسامة ثعلبية،وهز رأسه هزة ذات معنى .

وكانت له معي في المساء « كلمة » وفي الامسيات التي تلت « كلمات » . وسمعت منه وعوداً بالاثواب ، بالعطور ، بالحلوى ، بكل ما من شأنه ان يدير رأس فتاة محرومة . ولكـني كنت انفر من بقائي معه . فيدق قلبي الصغير في جـزع . ولا تطمئن اليه نفسي قط . وكرهته اكثر فأكثر حين مد الى خدي شفتين شرهتين وراح يقبلني ، غير مبال بصفعاتي على وجهه الغليظ .. حتى اذا افلتني أسلمت ساقي للريح عازمة على الا اريه وجهي بعد اليوم . وانقطعت اياماً ثم طأطـأت رأسي وعدت .. اذ جعنا . حاولت ان ابحث لنفسي عن عمل آخر فالتحقت بخدمـة اسرة ثم تركتها اثر صفعات انهالت علي من صاحبة البيت الجافيـــة جزاء

كسري كوبين .. دون ان اطالبها حتى بأجري على عملي لديها اسبوعاً ! فلم يكن بد من عودتي .. الى الانوال ! !

وطالت بيني وبين المعلم لعبة القط والفأر . ومرضت اعصابي وأنهكها طول الملاحقة .. ثم وقعت الفريسة مرة .. لتخرج بعد قليل ، اذ طردها النذل الى الشارع مطعونة الكرامة ، سليبة الاباء ، وجلى ، حيرى ، باكية ، محطمة .. تعصف بها النقمة وتلاحقها الزراية الى كل مكان ..

ولم اتمكن في هذه المرة من العودة الى البيت ، ولا الى الحي ، اذ سبقتني اشاعات عوض ودناءته يمجها مع اخباره هنا وهناك .. وتحركت الشفاه لا لتعذر او تبرر .. او تطلب من الله ستراً .. بل لتلعن وتنهش .

وهمت على وجهي يوماً واياماً .. وفي كل يوم يمر كان يموت في نفسي ايماني بعدل الحياة . ثم انتهى امري الى جحيم اسود يبتلع في كل يوم ضحية ولا يفتأ يطلب مزيداً ..

هناك تعلمت ان اصهر بشريتي في بوتقة الحقد .. هناك تعلمت ان اكره .. تعلمت ان انتقـــم .. وتعلمت اشياء واشياء .. وصرت تاجرة ! !

وكنت استفيق احياناً في غمرة هذا الحقد العظيم فاذكرك ويضعف قلبي فأبكي .. وأبعث من يأتيني بنبأك فاعلم بانتهـــاء أمرك الى احد المياتم نتيجة رجاءات ام محمود وضغطها على مختار الحي ليفعل شيئاً لهذا الضائع الذي هو انت .. وعذبني شوقي مرة فعزمت على ان اراك وحملت بعض الهدايا ، وما ان بلغت المكان

حتى وقفت حائرة امام الباب المغلق ، ولم ادر كيف ادخل ، وماذا اقول ، ومن اطلب. فالقيت باللفافة التي احملها من النافذة ثم عدت لا ألوي على شيء ..

وبعدها انقطعت بين عالمينا الاسباب .. وأظنك سألت عني اولاً وثانياً ، واشتقت الي قليلاً وكثيراً .. ولما لم يجدك الشوق ، نامت ذكراي في نفسك ثم تلاشت صورتي في خاطرك مع كر الايام . فاعذرك فقد كنت صغيراً .

اما أنا الصغيرة « الكبيرة » فلم انسك وظللت أتسقط اخبارك . فحبي اياك هو الصلة الوحيدة بيني وبين عالم العواطف . وما عدا ذلك فعواصف بغض تأكل قلبي أكلا ..

مرة ثانية اقول انني اشفق عليك ، بعد ان صرت كبيراً ، ان تبيع حياتك رخيصة .. ومرة ثانية اقول انني اعيذك من صحبة دنيء كعوض كرهته مع براءة طفولتي .. وترفعت عنه مع جناحي المهيض ..

واستعليت عليه في حمأتي .. حين طرق بابي مرة مع الطارقين . فاغلقت في وجهه بابي المفتوح .. وشيعته بسيل من شتائمي .

وهذا المسدس الاخرق خذه وبعه يا صغيري .. واشتر لنفسك قميصاً يستر اكتافك العارية . بدلاً من هذا القميص الممزق الذي لم تنزعه عن جسمك طيلة الاسبوعين اللذين دأبت خلالهما على مراقبة زقاقنا ، منذ ان جرتك فكرة الانتقام .. الى اختك !

إلى حين

- لا تنهضي سعاد. مكانك ظلي ،فسآتيك بالافطار الى الفراش .

وكانت سعاد تنحي عنها الغطاء حين امتدت يد عمتها تمنعها من ذلك . « ظلي ، ظلي . سمعتك بالامس تسعلين واخشى عليك من زكام » .. ولم يكن بسعاد سعال ذو خطر ، يستدعي ان ترفق بها عمتاها الى حد ان تحملا لها الافطار الى فراشها .. ولكنها ادركت ما وراء الحكاية ، فعادت وتمددت في فراشها في تراخٍ ، وابتسمت ابتسامة خبيثة،وراحت تفكر في هذا الانقلاب العاطفي الذي لم تعرفه إلا قبل مدة وجيزة .. فقبل ذلك كان عليها ان تقوم مع الفجر وتسعى على قدميها الى المطبخ ، تجهز القهوة والأفطار لعمتيها ولها .. واذا حدث ونامت دقائق اكثر من المعتاد ، فهناك صوت العمة الكبيرة يلعلع :

- الم تستيقظ بنت الباشا ؟ ما شاء الله ! تراها ستظل نائمة الى الظهيرة ؟ ومن يكنس الشرفة ويسقي الزرع ؟ انا ؟

فتنهض سعاد قبل ان تقفز شتيمة الى لسان عمتها .. وتسعى خفيفةً الى شؤون البيت .. الا شكراً لفهمي - ابن الجيران - وشكراً اكثر لخادمتهم التي قدمت بالامس تقضي شأناً لسيدتها فلقيت من العمتين حفاوة ، قلما تكون في طبعهما. وفي نوبة كرم اتيح للخادمة ان تذوق قطعة من النارنج المسكّر ، وان تشرب

فنجان قهوة ينطلق بعده لسانها يكشف من امور مخدوميها اشياء .. فـ« فهمي » ابن الاسرة الكبير الذي نال « الشهادة » هذا العام ولدٌ كله ذوق وانسانية . وليلى ، أخته ، فتاة مدللة لا همّ لها إلا ان تقرأ قصصاً فرنسية وتلعب على البيان وتختلف مع صواحبها الى السينما .. اما الام — ام فهمي — فسيدة تعيش على مَهَل .. خادمة وسائق وطباخ .. مرفهة تُحمل لها افطارها الى الفراش ..

وتذهب الخادمة وكلامها يطن في اذن العمتين . وتنظر كل منهما للاخرى نظرة لا يفهمها غيرهما ..

وفي الغد .. حُمل طعام سعاد .. الى فراشها ! بقي ان نعرف سر هذا التدليل المفاجيء .. الذي لم تعتده اليتيمة التي رُبيت في كنف عمتين كهلتين .. حسناً ، لسبب او اكثر اعتقدت العمتان ان فهمي — الابن الاكبر لعائلة الطبيب الكبير التي قطنت مؤخراً بجوارهم — « له خاطر » في سعاد ..

وقفت شفيقة — العمة الكبرى — مرة على الشرفة فرأت ابنة اخيها تبادل شاباً ، يقف على الشرفة المجاورة ، الابتسام . . فهمّت بان تبادر الفتاة بزعقة تجمد معها البسمة على شفتيها لولا انها تذكرت ان الفتى يقف على شرفة بيت الطبيب الثري الوجيه ذي السيارة التي يقودها سائق .. وساكن الفيلا التي يرمقها المارة بحسد كثير .. فارتسم على فمها شيء يحار بين الابتسام والتكشير .. لتردّد في نفس العمة . اتجعلها ابتساماً خالصاً ام تستبدل بها تكشيرة تقليدية يفهم منها الاثنان ان العمة لا تشجع الوقاحة .. ولا تحبها ..

وضبطتها في موقف ابتسامي ، مرة اخرى . وهنا كان لا بد

من محضر استجواب مستعجل للفتاة تتناوبه العمتان ..

كيف عرفت الولد ؟

– انه يراني على الشرفة ، وقابلني في الدرب مرة او مرتين .

– هل تحادثتما ؟

وسعلت الفتاة لتتهرب من الجواب ولكن «زغرة» من العمة الكبيرة فكت لسانها .

فقالت :« نعم»

– وماذا قال يا ترى ..

– سألني كيف حال عمتيك !

وتنظر العمتان الواحدة منهما للأخرى وتقولان في صوت معاً ،

– اقال هذا حقاً ؟ ابن ناس .. ابن ناس .. وماذا ايضاً ؟

– مرة رآني في الترام فدفع عني ثمن التذكرة ...

وتقطب شفيقة ما بين حاجبيها وتصطنع الجد وتقول :« طيب قومي الى امرك » .

وتخلو شفيقة الى انيسة ، فتخليان التطريز الذي كان في ايديهما لتسأل الصغرى اختها .

– فكرك ؟ !

– نعم فكري .. ولم لا ؟ هي وشطارتها .. اهو اكبر من ان يحب سعاد ثم يتزوجها ؟ أفي الحي من هي احلى ؟ . قد تكون فقيرة بالنسبة له ولكن الفقر ليس عيباً .. فأم فهمي نفسها – كما سمعت – كانت ممرضة في عيادة زوجها ،وبنتنا مهذبة لبقة بنت بيت « تربية راهبات . » وبيت « ابي فارس » ما طلعت منه واحدة

قال الناس فيها ما يشين. المسألة لا تحتاج لأكثر من بعض المسايرة واللباقة والتدبير .

ــ من الغد نقوم انا وانت بزيارة لأم الولد ...

ــ ولكن .

ــ ولكن ماذا ؟ ؟ تريدين ان تقولي اننا لا نعرفها ؟ وماذا ؟ نتعرف عليها. وكيف يتعارف الناس في الطرقات؟ في الاسواق ؟ لا عليك .. السعي للحلال ما كان حراماً في شريعة .. هل تريدين ان يقول الناس ان بنات « ابي فارس » يبقين عوانس ما عشن .. او حتى لو تزوجن فعلى كبر وهن عجائز ؟ .. لا تفتحي فاكِ ، أعرف ما ستقولين . تعنين أنك بقيت عانساً بارادتك ؟ لا ستي لا .. من دق بابك غير إسحق بائع السجق وكان أصمّ واحدى ساقيه في القبر ؟ اسكتي ، اسكتي . انا ادرى منك بهذه الامور. فما عرفتِ من دنياك الا القماش والخيوط . من الغد كما قلت نزور أم فهمي ونشجعها وابنتها على زيارتنا .

وسكتت انيسة .. فما فرحت في اعوامها الخمسين برغبة لها تنفذ وشفيقة في الوجود . نشأتا معا وتعلمتا المهنة وعرفهما الناس مطرزتين تشدان القماش على الانوال فيخرج من بين انامله‌ما المدربة مخدات ومفارش تزدان بها بيوت العرائس ..

وكانت شفيقة تقابل الزبائن .. وتعقد الصفقات وتقبض الاجرة ولا تنفقها الا بحساب، فعزيز عليها فراق القرش ، والقروش — كل القروش — تنفع في الايام السود .. ومستقبل الأختين ليس بياضاً خالصاً بعد ان تخف حدة بصرهما .. وينقطع مصدر

رزقها الوحيد .. ولم تسترح انيسة من سيطرة اختهـا الا حين تزوجت تلك ولكنه كان زواجاً قصيراً كليالي الصيف .. مـات الزوج العجوز ولم ينجب ابناء فعادت شفيقة الى شأنهـا في البيت والانوال والتحكم في انيسة ..

وتمشت مشيئة اكبر الثنتين .. فزارتا ام فهمي ولم تصحبا سعاد لأمر في نفس الكبرى .. وعادتا بعد ساعة وقد انكمش العالم في عيونها واختُصرت شؤونه فهو ليس اكثر من عائلة فهمي .. امه، ابيه، اخته، بيتهم المترف، فرشه الوثير، لم تفرغا من التحدث بهذا كله طيلة سهرة امتدت الى ما بعد منتصف الليل، واستغرقهما الحديث حتى نسيتا ان النور الكهربائي بحساب .

وتسمع سعاد وتدرك بغريزة الانثى ان عمتها تنوي امراً وقد اخذت ما كان بينها وبين الفتى من ابتسام بريء وتحيات في الطريق مأخذ جد خالص .. ولكنها اطبقت فمهـا تنتظر النتيجة .. او اطبقته استكانة لهذا الدلال الذي اختصتاها به .. فأعفيت من اكثر الواجبات البيتية .. فمسح البلاط – كما صار معلوماً لدى العمتين مؤخراً – ينـــال من طراوة يديها، وتقشير البصل ليس بالعمل المستحب لمتأنقة .. وكنس الشرفة – والشرفة المقـــابلة ببيت الجيران بالذات – لا يليق بواحدة تطمع او تطمع عمتاهـا .. في ارستقراطي كفهمي ..

☆

– سعاد لم لا تعزمين على الولد بفنجان قهوة ؟

وتستحي الفتاة . كيف تفعل .. بل كيف تخلق المناسبة ؟

فلا تجيب ويحمر خداها . فتقول عمتها ملاطفة :

— هيه لقد خجلت .. لا بأس ، سأدعوه انا ..

ووافتها المناسبة . كانت تسير وسعاد في الطريق فمر بهما صدفة وحيا بصوت خفيض ، ولكن شفيقة رأت عين الواجب ألا تمر به دون مجاملة فاستمهلته لتسأله عن امه وابيه وصحة المدموزيل المحبوبة — اخته — وتبسطت أكثر فسألته عما يفعل في العطلة .. وقالت نحن جيرة ويسرنا ان « تخطف رجلك صوبنا » فانت فتى مهذب ابن ناس .. ونحن والماما « صحبة » ..

وشكرها برقة وما انتهت حتى كانوا قد بلغوا البيت ، فألحت عليه بالدخول فدخل بعد ان ألقى نظرة على بيتهم ليرى ان كان هنالك من يرقبه .. وسرعان ما حضرت القهوة والحلوى والسجائر الامريكية التي هرولت انيسة تبتاعها من اقرب حانوت .. ومكث الفتى ساعة ولما قام شيعته العمتان الى نهاية السلم وكررتا عليه ان « يعيدها » .

اما سعاد فقد جلست بقلق تفكر فيما عسى ان يقول الفتى في عمتيها . ويقطع عليها تفكيرها صوت عمتها وقد عادت الى القاعة تأخذها بعتاب ناعم .. إذ لم تساير الفتى كاللازم .. وظلت ساكتة بصورة قد يظن معها فهمي ان زيارته غير مرغوبة .. او انها لا تفهم كيف تحكي كلمتين على بعضها .. وتتطوع شفيقة باعطائها بعض النصائح ثم تستدير الى انيسة وتهمس : «الا ترين .. صهرنا .. فتى لطيفاً ؟ »

وتلعب الصدف دوراً في احلام العمتين إذ تأتي اخت فهمي

مرة توصيهما بتطريز ثوب .. فتبشان في وجهها كثيراً وتتطوعان بتعليمها التطريز ولتقم هي بنقش الثوب بنفسها ..

وترحب ليلى بالعرض،فهذه تجربة جديدة تختلف عما ألِفَت في حياتها الرضية من مشاغل هينة .. وتأخذ بالتردد يومياً عليهما وفي يدها قماشها وابرتها ، ومن ثم تنشأ بينها وبين سعاد ألفة تشجعهما العمتان،وتصبح سعاد صديقة لليلى فتدعوها الى حفلة تقيمها في عيد ميلادها .. ولا تذهب سعاد فارغة اليد إذ تحمّلها شفيقة ستارةً الوانها من الوان الربيع .. وكان أدعى الى فرحة سعاد ان كانت عمتها بعيدة النظر ،ففتحت كيسها على سعته وابتاعت لها ثوباً وحذاء جديدين . فسعاد يجب ان تبدو انيقة كأحسن المدعوات ، ناعمة يفتنُ بها من يراها. وهذه مناسبة سيحضرها فهمي وسيراها ويتحادثان و.و.من يدري !

وتمضي سعاد الى الحفلة محرجة بعض الشيء ، فما سبق لها ان عرفت هذا اللون من الفتيات والشبان . وتلحظها ليلى فتخف اليها تلاطفها. وما لبثت ان اندغمت في الجو حين دارت انغام الرقص وعلا صخب الشباب وقضى صياحهم على جو التكلف الذي يسود الحفلات في مبتدإها حين لا يكون للناس همٌّ الا ان يزِنوا كل وافد بالقيراط وبنظرات تتلون اعجاباً أو سخرية أو رضى ...

وفي تلك الآونة بالذات كانت شفيقة وانيسة تطلان من الشرفة ترقبان المدعوين – نعني المدعوات – وتتساءلان عن الوجوه الغريبة من تكون ..ولا ترتاح شفيقة للعدد الكبير من المدعوات فتقول : «صاحبات ليلى .. كثيرات .. »

وتفهم انيسة ما تعنيه اختها فتقول : « اطمئني .. ليس فيهن

من هي أحلى من « سعادنا .. »

وتظلان في موضعهما من الشرفة يأكلهما القلق حتى تعود سعاد تقص اخبار الحفلة وترد على اسئلة انهالت عليها كالمطر ..

– هل سلمتِ على ام فهمي ؟ هل رقصت مع فهمي .. ماذا قالت ليلى عن ثوبك ؟ على فكرة ، من تكون الفتاة الشقراء ذات الثوب الاخضر ؟ . ألم تتعرفي عليها ؟ لا بد ان نسأل .. انها متغطرسة ، أليس كذلك ؟ لقد حزرنا هذا من نظرة .. تقولين بان ليلى اوصتك بان ترفعي شعرك دائماً كما فعلتِ اليوم ؟ أرأيتِ ؟ هذه نصيحتنا .. نحن ادرى منك بذوق « بنت عمك » فاحتفظي بهذه التسريحة ..

شفيقة في قلق حتى تعرف الشقراء المتغطرسة ذات الثوب الاخضر من تكون .. وعرفتها وعرفت ان لها اماً تتردد كثيراً على بيت « الدكتور » .. ويزعجها الامر فأي حق لهذه ان تصحب ابنتها بين يوم ويوم .. انها أدرى بنية هؤلاء النسوة اللواتي لا همّ لهن إلا اصطياد الأزواج لبناتهن .. ولكن هذا تطاول يجب ألا يسمح لها به .. « فهمي » ميال الى سعاد بلا شك .. وكل الظواهر تقطع بهذا .. يبسم لها من الشرفة ، ويحاكيها في الدرب ، واعطاها مرة كتاباً .. واخته تحبها وتؤثرها فتدعوها الى حفلات الأسرة .. ولقد شهدت الخادم بان ليلى كثيراً ما تطري سعاد لأمها ..

فنية الجماعة واضحة كالنهار .. فما معنى ان تعترضه هذه المرأة وبناتها ؟ لا . ستصبر شفيقة عليها مدة فان لم « تقطع رجلها » فلا بد من ان تذهب اليها في دارها تنهاها عن هذا الشطط وتبصّرها

بموقف فهمي من سعاد ..
أية نسوة هؤلاء !.
ويظل القلق يأكل قلب العمتين .. سيما شفيقة .. ان الفتى لم يتقدم ، فمتى يفعل يا ترى .. لا بد انه فاعل قريباً .. لعله الآن مشغول بالتفكير في مستقبله .. إذ كيف يخطب بنات الناس قبل ان يركن الى شيء ؟ .
لا بد من حركة .. وأشد ما تخشيان مناورة تقوم بها ام « الفتاة الاخرى »، فتلفّ الصبي ولا تبقى لسعاد إلا الحسرة .
وهكذا تظل شفيقة ، وتظل انيسة ، وتظل سعاد في هواجسهنّ . العمتان تفرشان بالآمال درباً للصهر العزيز ، والفتاة حيادية الشعور ، فما بينها وبين الفتى لا يدفعها لان تطمح مطمح عمتيها ، تنام على الدلال مستكينة ترقب ختام الرواية ..
وجاءت النهاية يوماً ..
استيقظت العمتان مرة على صوت الجيران يودعون فتاهم المسافر الى امريكا للدراسة ..
واستيقظت سعاد بعد ليلة حلمت فيها بفهمي فهي في احلامها اجرأ منها في يقظتها على بناء القصور .. استيقظت على صوت شفيقة القديم يصيح :
ـ ألم تستيقظ بنت الباشا ؟ تراها ستظل نائمة الى الظهيرة ؟ ومن يكنس الشرفة ويسقي أصص الزرع ..؟ انا ؟

الشيخ مبروك

اطل عليّ جاري بوجهه العتيق وقال: «اليس عجيباً ان لا نرى الشيخ مبروك لايام ؟» قلت وانا لم ارفع يدي عن شعر الزبون الذي اعملت فيه مقصي :

— لقد افتقدته انا ايضاً ولا ادري مـــاذا المّ به . لعله مريض .

— عجيب ، ظننت الشيخ مبروك ، لا يمرض .

— ولم ؟ اليس ببشر مثلي ومثلك ؟

— بلى ولكن ...

— ولكن لماذا ؟

— ولم يجد جاري مايقوله، فاستدار، وتركني افكر في الشيخ مبروك الذي لم يزرنا مؤخـــراً ، وهو الذي لم يعودنا التخلف قط اذ دأب على المرور بنا يومياً منذ عشرة اعوام ولم يعفنا الا في ايام العطل والاعياد .

كان الشيخ مبروك شخصية فيها الكثير من وجوه الغرابة .. وكان عهدي به منذ عملتُ صبياً في دكان الحلاق التي آل اليّ امرها فيا بعـــد كما هي العادة، وكان يلذ لي كثيراً ان اتأمل قامتـــه الفارعة ووجهه القسيم الملتحي وتلـــك المسبحة الطويلة السوداء المتدلية من يمينه، فتروح عيناي تنتقلان من عمامته الحائلة اللون الى

جلبابه القديم الذي كان أبـــداً نظيفاً الى خفين ينتعلهما ويمشي بهما مشيته الخفيفة .

ولم اكن اعلم في باديء الامر سر زياراته اليومية المنتظمة فقد كان لا يجلس ولا يتباطأ . يدخل فيلقي السلام بصوت خفيض ثم تمتد اليه يد معلمي بقرش واحد يلقيه هذا في جيبه ثم ينصرف عنا الى جارنا ، ومن ثم الى صف طويل من حوانيت الحلاقين والمنجدين وباعة الملابس القديمة يجمع منهم القروش . وحرت في ماهيـــة الشيخ مبروك واستثار فضولي . أهو شحاذ ؟ كلا ، ليست له هيئة الشحاذين ولا نفسيتهم ولا تكلفهم لمـــا يستدر العطف ويحرك الحسنة . . ففيه نظافة دائمة ، وفيه كبرياء تلجم لسانه فلا يفوه بكلمة الشكر الا بصوت خفيض .

ولم يدعونه « الشيخ » ؟ . ما اكثر المتشيخين ، ولكنه ايضاً لا يشبههم . عهدي بهؤلاء يجلسون فيتلون من آيات الكتاب الكريم ماتيسر . ثم يشربون من القهوة قدحاً او اثنين ويقبضون بعدها ما تيسر ايضاً . وهم يدعون للمعطي بان يرتد له قرشه قروشاً وان يوسع الله له في الرزق لتنبسط كفه بالعطايا . . اجـــل ليس الشيخ مبروك رغم العمة واللقب واحداً من هؤلاء . . . وهو في شكله العمومي اشد ما يكون شبهاً بالمغاربة الذين يتعاطون حرفة فتح البخت واشياء اخرى الى جانبها . اذن لم يواظب الرجل على هذه الزيارات اليومية ولم يمنحه معلمي وجيرانه قروشهم راضين ؟

واستحيت ان اسأل معلمي ، وكان الاولى ان ادرك ان الثرثرة من مستلزمات الصنعة فلا استحيي ولا يقف على لساني السؤال .

ولكنني تشجعت يوماً فقال معلمي: «والله يا ابني لا ادري ما اقول. نحن نتبارك بالرجل ففي طلعته يمن وبركة ينزلان على المحل. لقد اسميناه مبروكاً فضاع اسمه القديم وقد يكون محمداً او علياً او خميساً. ولكن ما علينا، مبروك هو الاسم الذي اصطلحنا على مناداته به. اما الشيخ فهو من متممات الجبة والعمة والمسبحة.

هو لا يطلب قط ولا يثقل علينا، فاذا اعطيناه اخذ واذا امسكنا انصرف غير لائم.. ان في وجهه قناعة غريبة فكأن الدنيا لديه ليست اكثر من لقمة تقيم الاود وصحن مسجد يأوي اليه اذا جن الليل. وسألته وقد شاقني امر هذا الانسان: «اما من زوج له وابناء؟»

وقهقه معلمي قهقهة اهتزت معها عروق رقبته وقال: «زوجة؟ زوجة للشيخ مبروك؟ وهو الذي لا تذكر امامه النسوة الا ويطرق في إعراض؟ لا يا ابني، هذا رجل زهد في دنياه ليشتري آخرته» وسكت معلمي حين دخل زبون رمى بنفسه على الكرسي الخشن واسلم رأسه للمقص، وفتح اذنين كبيرتين لحكايات معلمي.

وظللت اعمل في دكان الحلاق او صالون السرور والانشراح كما كان صاحبه يسميه، سنين. ولا اذكر ان وجه الشيخ مبروك غاب عنا خلالها يوماً واحداً الا في ايام التعطيل.

وكنت اترقب مجيئه بشوق. يدخل فيحيي ويقبض وينصرف لا يلوي على شيء... كدأبه منذ دخلت الكار صغيراً الى ان صار اليّ امر صالون السرور والانشراح بعد ان مات معلمي.

اذن فليس بالكثير لو افتقدت الشيخ مبروك وعراني قلق

خفيف لانقطاعه اسبوعين بكاملها . ولكنه جاء بعدها . جاء وكان الوقت عصراً فحيًا واقترب مني، فمددت اليه يدي بالقرش، ولكنه ابتسم ابتسامة حائرة بعدها ، فلما رأيتها على وجهه وقال : « لا ، لم اجيء لهذا . . ولا قروش بعد اليوم . »

ولم افهم ما يعني اذ لم اسمعه قبلًا يتفوه بهذا القدر من الكلام دفعة واحدة فقلت: « لم نرك لأيام . . » قال : « كنت مشغولاً »، ثم غيّر نغمة صوته وقال : « الا تحلق لي لحيتي ؟ »

قلت : أحلق لحيتك ؟

ــ اجل لحيتي . إنهم يريدونني حليقاً كالافندية. وضحك ضحكة خلتها تخرج من بطنه .

ــ من هم ؟ عمن تتكلم ؟

ــ انها امرأة سأتزوجها .

ــ انت تتزوج يا شيخ مبروك ؟ وهل تفعلها ؟

وراح يبتسم ابتسامة كشفت عن صفين من الاسنان البيضاء وقال : مكتوب . .

ووقفت احدق الى وجهه . لم أصدق عيني ولا اذني وخلت الرجل يهذي . فقال وهو يستحثني :

ــ انت لا تصدقني يا حسن . . لعلك تظن بي الجنون.

قلت : « تماماً . أتمزح يا شيخ ؟»

ــ لا والله بل سأتزوج .

ــ ممن ؟

ــ من واحدة لاتعرفها. اما انا فمعرفتي بها قديمة. كانت فتاة صغيرة

وكنت احبها ولما شئت ان اتزوجها، ابى علي" ابوها ذلك واعطاها لابن اخيه . وكان رفضه صدمة لم احتملها ، فهمت على وجهي كالصعاليك. وشعرت بانني رجل لا صلة له بالناس او الحياة فعشت كما عرفتني .

وسكت مبروك قليلاً وبلّ شفتيه بلسانه وقال: «وخلتني نسيتها ومات حبها في قلبي، الى أن رأيتها قبل شهر من الزمن بعد ان عرفت ان زوجها قد مات وترك لها طفلة، وشعرت ياحسن بانني لا زلت احبها ذلك الحب الذي لم يعش سواه في نفسي ، فما رفعت قدمي عن العتبة قبل ان اعرض عليها الزواج . وقبلت بالطبع اذ انها ستجد في حمايتي ما يعصمها عن التشرد . ولا بد لي من عمل الآن . سأكون صاحب عيال . هذه هي الحكاية يا صاحبي .. مالك لا تقص لي لحيتي ? كيف اعمل بها ? »

قلت وانا بين مكذب عيني واذني ومصدقها : «غريب» — ولم ازد بل حملت الموسى وراحت لحية الشيخ مبروك تتناثر امامي على الارض سوداء كريش الغراب. وشعرت وانا ازيل عنه لحيته بأنني امسح عنه الاسطورة .. اسطورة البركة .

عقب سيجارة

نظر محمود الى زوجته الماخض وقد ارتمت على حشية رقيقة برزت من ثقوبها نتف من القطن الأغبر والتحفت بغطاء لم يبرز منه الا وجهها المتقلص الذي انعقدت حبات العرق على صفحته السمراء .

– هل انادي أمكِ ؟

واجابته بصوت أوهنه الألم ... « اجل ! نادها ، فما اخال الساعة بعيدة ... ودعها تدعو الحاجة نفيسة في طريقها اليّ . »

– حسناً .

– محمود !

– نعم .

– مدّ يدك ، الى « العلاقة » واعط الولد كسرة يأكلها ، بلّها بالماء اولاً ، فلا تجرح يبوستها زوره حين ازدرادها ..

وتطاول محمود الى الكفة ، وتقبضت اصابعه على الرغيف الباقي ، فاقتطع منه كسرة دفعها الى الصغير بعد ان قضم منها قطعة راح يلوكها وهو يسأل : « هل من حاجة اخرى ؟ »

– اجل يا محمود ، بعض الماء الساخن .

– لعلك نسيت ان ليس هنالك قطرة من البترول في البريموس . فكيف يشتعل ؟

- ليس امامي الا الفرّان اقصده واسأله بضع جمرات .

- دع ذلك الى حسين ، وانطلق انت لمناداة أمي ... ان الألم يقتلني .

- ولكن حسين لم يعد بعد .. فهو لم يشبع لهواً مع ابناء الدروب . انني ذاهب فهل تريدين شيئاً بعد ؟

- لا .

ونفذ محمود من الباب قبل ان يسمع هذه الـ «لا» . ولكنه قدّر ان تقولها اذ ضلت « نعم » طريقها الى شفتي زوجه منذ صارت الكلمة مع إملاقهم عقيماً لا تلد .

انها جائعة تعبة ، موهنة القوى لا شك في ذلك وهو ايضاً مثلها وكذلك « ولداهما » وسينضم الى الزمرة واحد جديد ليس لديهم له الا ثديٌ جافٌ وفاقة مستحكمة . فما كان اغناه عن هذه الدنيا وأغنى والديه عن فم جديد يريد ...

ويتأوه محمود ويمر باصابعه على عينين تتراقص امامهما الظلال وكأنه يحملهما وزر ما يعانيه . لقد كانتا حادتي البصر قبل ان يزورهما الرمد ويخلف فيهما ضعفاً زاد منه الاجهاد حتى حرمه نور عينيه الا بصيصاً .

وادى به ذلك الى التخلي عن عمله مذ سحبت السلطات رخصة قيادة السيارة التي يملكها ، فدفع بسيارته الى شريك اساء استغلال الشركة فضاعت السيارة على اسباب يصطنعها . عشرة جنيهات ثمن قطعة مكسورة ، وخمسون لابدال عجل مهترىء ... و ، و . وانتهت الصفقة ببيع السيارة ليخرج من العملية بعشرين جنيهاً كانت آخر

غهده بدنيا الجنيهات .

وتأوه محمود ثم قفز فكره الى زوجه ،فغذ السير يطوي الدروب التي يعرفها ويميزها رغم العتمة التي تعسكر في الدروب والازقة مبكرة اذ تشابكت الدور وتكاثفت الاسطحة فما تسمح للشمس بمنفذ .

وطواها جميعاً فما يتمهل الا لتتملى خياشيمه من رائحة خبز يمر به حامل ، او سمك يقلى فتتسرب رائحته من باب مفتوح . وانتهى مسيره الى باب لا يخطئه فشد حبلاً ورفع المزلاج فانفتح الباب ، وتنحنح بصوت مسموع فخرجت له ام زوجه متنقبة ، فأنهى اليها الامر وقدمه لم تتخط العتبة ، ثم قفل عائداً بعد ان أخذ منها وعداً باللحاق به بعد ان تأتزر .

ومشى مسرعاً ليوافي زوجة تتعذب ، وحياة جديدة تشق طريقها ، وصغيراً ثانياً يحملق ولا يفقه شيئاً مما يدور حوله .

ومشى محمود المسافة بين البيتين الا اقلها قبل ان يعترضه صغير يجذبه من سترته ويقول :

— انت ابو حسين ؟

— أجل ما بك ؟

— لقد اخذوا حسين ، اخذه الشرطي الى المركز اذ رآه يجمع اعقاب السجائر .

— وما له وما للاعقاب يجمعها ؟

— يعطيها لبائع الحلاوة لقاء قطعة صغيرة من الهريسة (إن حسين لا يعرف كيف يشتغل) . اعقاب كثيرة مقابل هريسة

بحجم حبة الترمس . هل ... هل آتي معك ادلك على القسم ؟

ومسح محمود عرقه المتصبب وقد احتار بين التصديق والتكذيب، ولكنه لم يقرأ في عيني الفتى الا جداً فقال : « تعال قاتل الله الأولاد ، هذه تعاليمكم يا مناكيد . لقد كان حسين قبل ان نأتي الناحية « اعقل من فتاة »

– من هم المناكيد ؟

– انت واترابك .

– انني لا اجمع الاعقاب، فلي أم تبيع الترمس وتعطيني ما اشاء.

– كلكم مفسود. لعنتم جميعاً .

– لِمَ تسبني ؟ لن آتي معك اذن.

– تعال . لعنة الله عليّ انا .

ومشى محمود هرولةً وراء دليله الصغير في حارات متعرجة حتى انتهوا الى طريق لا يزال اهله يصلون اسبابهم باسباب النهار، قطعا منه خطوات ثم وقف الصغير ومسح وجهه بكمه ورفع خصلة الشعر المتدلية على جبينه وقال .. « ادخل وحدك يا عم ، اما انا فدعني اهرب قبل ان تمتد اليّ يد العسكري . »

وتريث محمود قبل ان يأنس في نفسه الجرأة على الولوج. ولكنه دخل اخيراً وراح ينقل بصره الكليل بين هذه النماذج الكئيبة التي ارتسمت على صفحات وجوهها خطوطاً غبراء وامامها شرطي يلوح بصوته كلما سمع همهمة، ويفتل شاربيه باصابع غليظة .

ولا يدري كم طالت به الوقفة قبل ان يستفيق الجندي فيمشي باتجاهه ويسأله بتعاظم :

ــ من تكون يا هذا ؟
ــ لي ولد بين هؤلاء .
ــ حيلة قديمة ..
ــ ماذا تعني ..
ــ لعلك احد هؤلاءالذي يدعون ابوة الاولاد ثم يستخدمونهم لاغراض السلب والنهب وقطع الطريق .. انــــني ادرى الناس بألاعيبــكم ..
ــ لا علاقة لي بمن تعني .. اقسم ..
ــ نحن في غنى عن قسمك ، قلت لك انصرف .. والا ..
ولم يتمها الشرطي اذ وقفت امام باب المركز سيارة قفز منها ضابط دخل الى غرفة جانبية دون ان يلتفت او يرد حتى تحيــــة الشرطي . وابتلعته الغرفة ثم خرج منها بعد ساعة يستعرض هذا الصف البائس من الصغار ويقول .. « هيه ، صيد النهــار . . هل اتصلت بمفتش الشؤون الاجتماعية ؟ ومن هذا الرجل الواقف ..؟ متسول هو الآخر ؟ » ونظر اليه الضابط متفحصاً ثم انفرجت شفتاه في دهشة وقال :
ــ محمود ، يا جاري القديم ، ماذا تفعل هنا ..؟
ــ صفوان ؟
ــ اجل صفوان .. لعلك لم تتوقع ان تراني ضابطاً .. ايه ، انها الدنيا ..
ــ اي والله .. صفوان سنتحدث فيما بعد .. هــلا سمحت لي بولدي ، فانا في عجــــلة من امري .. اؤكـد لك انه ليس من

زمرة هؤلاء .

ـ اي ولد ؟

ـ ذاك .

ويلتفت الضابط الى الجندي يسأله عن سبب قبضه على الصبي فيقول ذاك بأنه رآه يجمع اعقاب السجاير .. ومصير جامعي الاعقاب مرسوم معروف .. لصوص يظهرون كالخفافيش كلما جن الليل ليعيثوا فساداً في ارجاء المدينة الغافية .

ـ ان ابن محمود لا يمكن ان يكون لصاً أبداً ، وأستبعد ان يكون من جامعي الاعقاب . امض ايها الفتى الى والدك . ثم مد الضابط لى محمود يداً يعرفها .. وصافحه ثم استدار مع ولده وانطلقا في طريقهما الى البيت ، وابتلعتهما الدروب المعتمة دون ان ينبس احدهما بكلمة .. وسارا يسلمهما الزقاق الى زقاق ، والعطفة الى جادة ، حتى كان بيتهما ..

ووقف الاثنان يستجمعان انفاسهما اللاهثة ، واذا بصوت يعلو من الداخل ، صوت وافد على الدنيا جديد ، يبدأ حياته باكياً بصوت كالعواء .

ـ ابي ما هذا ..؟

ـ اخ جديد ولدته امك ..

ـ الا ندخل ؟

ـ كلا ، انتظر ..

ونظر الولد الى ابيه وقد امسك بيده علبة ثقاب وراحت يده

الثانية تبحث بعصبية في جيوب سرواله وسترته عن شيء ..

هنا دس حسين يده في جيبه واخرج عقباً من بين الاعقاب القابعة فيها ، ودفعه الى ابيه ليستقر في لحظة بين شفتي والده اليابستين المرتعشتين ..

على الدّرب

هوذا الجرس يقرع .. ما اطولما انتظرتُه! فاسارع واسحب يدي من حوض الماء الذي رُصت فيه زجاجات فارغـة تنتظر الغسل لتعبأ بالبيرة من جديد ثم تحمل الى حانات المدينة وعلب ليلها .. فما تلبث ان تنصبّ في افواه ظمأى لا تعرف الري وتعود اليّ بسرعة فارغة تنتظر الغسل .

وادير فيما حولي عينين زائغتين ابحث عن خرقة .. وأجـد واحدة فاروح اجفف اصابعي المتغضنة لطول ما نقعت بالماء . اجففها اصبعاً اصبعاً فالاحظ خلو يدي من الخاتم الذهبي .. طالما حلمت ان ألبس خاتماً، ايّ خاتم،واحداً ذا حجر لماع احمر كالذي كنت اراه في واجهات الصاغة .. وكنت احلم دائماً ان اضعه في البنصر الايمن .. وجمعت مرة مبلغاً ووعدت نفسي بالخاتم الذهبي ذي الحجر الاحمر وما كنت ادري ان ابي سيموت فاعطي امي النقود واحزن على ابي كثيراً ولا اعود اسمح لنفسي ان افكر بالخـاتم .

ولكني املك واحداً الآن .. خاتم خطبة ، حلقـة بسيطة صفراء طوق بها اصبعي اعطاها لي عندما قال لي:« ستكونين زوجتي ..» وفرحت: سأكون زوجته وسألبس الخاتم. واشتهيت ان يعطيني الى جانب الحلقة الصفراء خاتماً آخر ذا طبعة حمراء ..

ولكنه لم يفعل .. انه فقير مثلي وما كان في طوقه ان يهديني اكثر من خاتم الخطبة وثوباً من الحرير الازرق وزجاجة عطر لم افتحها بعد .

ومددت يدي الى جيبي واخرجت كيساً جلدياً صغيراً اخرجت منه الخاتم حيث خبأته خشية ان يذهب الماء والصابون بلمعانه .. ولبسته .. والتفت حولي فاذا رفيقاتي العاملات قد تسربن كلهن الى بيوتهن القريبة . لعلهن الآن جالسات الى طعام دافىء .. او مستلقيات على فراش .. لشد ما تؤلمني رجلاي ، ولكن عليّ ان انتظر امام المصنع قليلاً فقد يمر بي بسيارة المصنع ويحملني .. فما في طوقي ان اعود في هذا المساء البارد المطير مشياً على قدمي الى المدينة .. نعم يحملني مع صناديق الزجاجات الى المدينة ويسلمني للبيت ، ويطوف هو يوزع صناديق البيرة على الزبائن .. اجل سأنتظر ، فانا تعبة ويكفي انني طويت المسافة في الصباح مشياً . فمررت باشياء كثيرة ، بيوت لا تزال مغلقة المخادع ، أناس يسيرون الى اعمالهم نصف نائمين فما تزال في عيونهم احلام لم تمح . واری ایضاً بائعات اللبن والبيض ، واری سحاباً ينعقد فوق مداخن البيوت . وامشي ، وامشي طويلاً قبل ان اصل . وكأني بصاحب المصنع قد اقامه في آخر الدنيا . واتذكر القطار الذي كنت كلما شاهدته وانا صغيرة اخاله سائراً الى آخر الدنيا ، الى ما لا نهاية ، وأصل اخيراً مع العاملات الاخريات في الوقت نفسه ولكنني اترك بيتي قبلهن باكثر من ساعة .. بيتي بعيد .. في مكان عتيق من المدينة .. هناك ولدت وهناك

عشت .. ولا اترك بيتي الا بعد ان اتزوج ، اجل سأتزوج فلدي" خاتم ورجل احبه سيأخذني الى بيته واعيش سيدة فلا اغسل الزجاجات بعد . ولا افيق قبل الديكة ..ولا تدمي قدمي الرحلة بين المصنع والمدينة..ان رَجُلي فقير ولكنه قوي وطيب ،وسأبدو الى جانبه قوية فلا اشعر بضآلتي كما احس الآن حين تمر بي واحدة من اولئك المعطرات الانيقات . ان ثوبي الازرق الذي اعطاه لي جميل وسيشتري لي واحداً غيره .و« هو » إنه قوي جميل هكذا قالت عنه فتيات المصنع..وكثيرات منهن حسدنني وبعضهن فرح لي فقلن يوم خطبت اليه : « ستر تاحين من هذا الشقاء » . وقالت لي واحدة خبيثة: « انني صائدة ماهرة اذ اوقعت عاملاً في شبا كي ولما ينقضِ على عملي في المصنع شهران» . سمعتهـــا تقول هذا ولم اكرهها ، لعلها تتمنى هي الاخرى شخصاً يريحها من بعض ما هي فيه . هذا حقها ، لم لا تكون هي وانا وكلنا مثل النسوة المدللات اللواتي يجلسن على شرفات بيوتهن يثرثرن ويحتسين القهوة ويرفعن الفناجين الى افواههن بأيد عاجيـــة سمينة حليت بالخواتم اللامعـة ويضحكن منا كلما مررنا بهن بثيابنا العتيقة .

الطريق مقفر . المساء ملفع بضباب .وهذا الرذاذ يتساقط على وشاحي الصوفي الذي لففت به رأسي ولما تأتِ السيارة به وبالزجاجات بعد ! لم تأخر ؟ تراه غادر المصنع مبكراً على غير عادة فلم احس به وسط تلك الدوامة من حركة الآلات والآدميين ؟ بدأت اخاف والدرب طويل طويل .. الى آخر الدنيا .. حيث بيتنا العتيق ، وامي الفضية الشعر ، ونار عليهـا قدر حساء ،وبي جوع وبي شوق

لامي وله ، نجلس ثلاثتنا حول النار ونتحدث في اشيـاء لا تشبه الزجاجات ولا دخان المصنع ، ونحلم باشياء لا تعرفها ايامنا. تراه مر بي ولم يرني ؟ وسمعت صوت سيارة يخدش صمت المساء . لعله هو ؟ وبدت من بعيد العينان المضيئتان ، واقتربتا مني رويداً رويداً. لا . لم تكن سيارة الشحن الكبيرة ذات الصرير المزعج ، بل كانت واحدة من سيارات المترفين خفيفة رشيقـة وكان يقودها ... ولكنه لم يقف . ترى لم ؟ انا واثقة من انه رآني ، فعينا السيارة تشقان عتمة المساء ، وقد تصديت لها حتى خلتها ستدوسني . ولما فاتني صحت بقوة ، فوقف ، وعدوت اليه وفتح الباب لي . وهممت بان ارفـع رجلي ولكنني اجفلت وشعرت بعينـــين قبيحتين تحدجانني من وراء نظارتين سوداوي الاطار . من كان ؟ لا ادري! لعله المدير الذي نعرفه بالاسم فقط . وتملل ودفع جسمه الى الامام قليـــلاً سائلاً بكبرياء : « من تكون هذه ؟ » ولم يزد بل حرك يداً فيها سيجار ضخم مشتعل أنْ ابتعدي . فما كان من الرجل الذي احبه ويحبني ، الرجل الذي شدني اليه وقال «ستكونين زوجتي» إلا أن نحاني عن الباب ثم أطبقه في وجهي برفق او عنف لا ادري . ومرقت السيارة وخلَّتني للعاصفة وحيدة ، وفارت في عيني دموع سخيـــة ولفتني موجة كراهية ، ورقصت امام عيني صور الاشياء ضخمة تمتنع على ضعفي ، مستعلية شامخة لا ينالها الزاحفون على بطونهم امثالي . كلها جبار ــ البيوت ، الآدميون ، الاشجار ، السيارات ، حتى زجاجات البيرة الفارغة ، خلت الواحدة منها في طول المارد ، ووسط هذه الدنيا

من الشوامخ رأيت نفسي معه .. مع الرجـل الذي اعطاني خاتما وقال : « ستكونين زوجتي ». و كنـا قزمين ندبّ على الارض نتمطى فلا نبلغ طول اصبع المدير التي نحتني باشارة عن السيـارة وخلتني للعاصفة .

في المفكّرة

لم تدر صاحبتنا أن يومها هو آخر ايام السنة ، فما كانت الايام والشهور عندها بحساب . ومـــا كانت لتعبأ بفواتح الاعوام او خواتمها ، لولا انها القت نظرة على النتيجة المثبتة على الحـــائط ، لتتأكد من تاريخ اليوم الذي هي فيه قبل ان تتوج به رســـالة كلفت بكتابتها ، فأنبتها بانه اليوم الاخير من ديسمبر . وديسمبر ترتيبه الثاني عشر من شهور السنة كما تقول التقاويم ...

اذن، فقد انتهى العام... تماماً كما بدأ ... الهدوء نفسه والنسق نفسه. استقبلته كما استقبلت غيره فيما سلف من اعوامها ، وها هي تودعه دون ان تدري اتحمده ام تذمه ، فما حمل لها في طياته مـا يزعج ، كما لم يطالعها بما يبهج. فاي حق لها في ان تحمد او تذم؟..

غداً تمد الى التقويم يداً فتنتزعه وتعلق الجديد بدلاً منه. وغداً يتحتم عليها ان ترقم في رسائلها عـــام اثنين وخمسين بعد الالف والتسعمئة . وغداً تلقي بمفكرة المكتب .. الحافلة بالاشارات والارقام لتأخذ اخرى جديدة تفتح بها عاماً مكتبياً..من اعوام حياتها التي لم تكن..الا مكتباً ورسائل،ومطبوعات وحسابات..

وحدقت الى المفكرة السوداء الغليظة . فقفز فكرها الى مفكرة اخرى صغيرة هاجعة مع الاغراض الاخرى في حقيبتهـا الاثرية تذكر انها اشترتها من احد المحال التي تتزود منها بحـاجات العمل

من اقلام وقرطاسية، فرأت هذه المفكرة وشاقتها جلدتها الحمراء، فابتاعتها، وتقبضت اصابعها عليها،حتى اذا ما وصلت بيتها كان اول شيء فعلته انها خطت على صفحتها الاولى كلمتي « عام جديد » .. ورسمت بعدهما صفاً من علامات التساؤل ..

وتفتح صاحبتنا مفكرتها الصغيرة فاذا هي لا تزال بيضاء من غير سوء . اللهم الا من علامات تحنّ الى الجواب .. فاذا ما عز عليها ماتت فيها اللهفة وان ظلت على انحناءتها .. وهكذا خلت المفكرة من اثارة تخلف معها الذكرى او عبارة يقف عندها الفكر لحظات .. وماذا كانت حين خطت هذه الاشارات ؟ انها نفسها لا تدري ! .. فما عاشت يوماً الا كما تعيش اليوم، وستعيش الى الابد .

الى الابد ... وافزعتها هذه الكلمة .. فهي ذات مطاطية لا تحتمل .. الى الابد ، هذه تعني بالنسبة اليها مكتباً عتيقاً .. ومحبرة ملوثة وطابعة تبدو حروفها وكأنها اسنان عالقة في جمجمة، ورفوف عدة اصطفت فيها نماذج من المسامير والبراغي واصناف البويا التي يتجر بها مخدومها . الى الابد .. ؟ مع هذا الرجل القريب – البعيد . وتلتفت الى صاحب المحل وتحدق الى وجهه الهادىء .. هذا الوجه الذي حارت في دراسته فخرجت بلا شيء فكأنه قد لبس طابعاً لا ينزعه الا في مناسبات نادرة .. حين ماتت امه مثلاً .. ومرة حين زارها في المستشفى يوم استأصلت زائدتها الدودية وبيده علبة كبيرة من الحلوى .. انه طيب .. لا شك في ذلك .. ولكنه غريب .. فهو لا يثور ولا ينفعل ولا

يغضب ولا يفرح ولا يمازح ولا ، ولا، ولا .. فما عرفته الا هكذا .. عندما اقبلت على المكتب منذ عشرة اعوام . وقامت صاحبتنا بانفعال تطل من النافذة فتبصر بالناس افواجاً يتأبطون العلب .. ويحملون اللفائف ، يمنون انفسهم بليلة ملونة .

انهم يحسون الايام . اما هي فما في عام يروح وآخر يجيء مبعث فرحة او محرك امل . فيومها الاخير كبقية الايام وليلتها كتلك الليالي الباهتة ، وجه تقنع بالجمود .. ملقى على مخدة وفية قديمة .. ومصباح تومض فيه ذبالة وانية .. وغرفة تغلفت جدرانها بالصقيع .

وتركت موقفها من النافذة وعادت تلقي بنفسها الى الكرسي وتمسك بمفكرتها الصغيرة بعصبية ظاهرة ..لم تتبخر الا بعد ان تحدرت من عينيها دمعتان لذعت سخونتهما خديها . ولم يخفَ على صاحب المحل ان يلحظها . فتومض عيناه في اشفاق .

وحين قامت صاحبتنا في المساء تقفل ادراجها وتوضب حاجياتها، ربطت رأسها بوشاحها الصوفي القديم، وشدت سترتها القاتمة على جسمها النحيل،وأقبلت على مخدومها تودعه وترجو له عاماً سعيداً. وشدّ على يدها بحرارة ادهشتها وناولها مظروفاً اصفر حشاه ببعض اوراق النقد وقال :

- هل اشتريت لنفسك ما يروقك من ثياب ؟ لقد عزمت على المرور بك الليلة لأحملك الى مكان نساير فيه المعيدين .. ومن يدري فقد انجح في حملك على ان تخطي شيئاً جديداً في مفكرتك .

زواج العمة

كان من الطبيعي وزائرتنا « ام يوسف » ان تُفكَّ الالسنة من عقالها وتخوضَ في شئون الابعدين والاقربين من الجيرة وسكان الحي .. فامُّ يوسف شركةٌ اخبارية نشيطةٌ تبذُل في جمع الاخبار من اطراف المحلة جُهداً لا يُنكر عليها. وهي الى هذا كله لا تزالك مرة الا وتحدثُك بجديدٍ او قديم، وقد تعرفُ من امرك ما لا تعرفه انت عن نفسك . وقد تطالعك باشياء لا تقع لك على بال .

وانباء ام يوسف لا تحتمل الشكّ والتأويلَ فهي ابداً على ثقة مما تقول . قالت وقد جذبت انفاساً نهمة من لفيفتها أتبعتها برشفةٍ مسموعة من فنجان القهوة : «انه عرسُ ملوك، عقبال العايزين. فأم شوقي تريدُ ان يتحدثَ الناسُ عن عرس ابنتها فلا ينتهون .. الاثوابُ خاطتها للعروس احسنُ خائطات البلد .. الاثاثُ من اثمن الاخشاب .. والعطور والزهور .. والمفارش .. ماذا أعُدّ وماذا ادع ... ولم لا تفعل ذلك واكثرَ منه ؟ (سلامة فلوس ناجية) ورحمة الله على زوجها مسعود، وكانما كتب على آلافه المؤلفة ان يرثها ابو شوقي وبنوه من بعده وان يرتعوا في خيره فلا يتكافوا اكثرَ من هذه الرحمات يستمطرونها عليه كذباً ورياء .. ومتى كان الكلام بفلوس؟ ان من لا يعرف امّ شوقي يجهلها .. ولكنني اعرفها . » واستكان لسانُ ام يوسف لحظةً لترشف من فنجانها

الرشفة الاخيرة حين سألتها امي – « تُرى الم يَطرق بابَ ناجية طارقٌ بعد زوجها المتوفى ؟ »

هنا فتحت ام يُوسف عينيها حتى باتتا مدورتين كعيني قط . . وقالت : « ماذا !؟ صدقيني انك بسيطة يا امرأة . . اهناك رجل لا يود ان ينامَ على ثروة ناجية؟ لقد تقـــدم لها اربعة من تحت يديَّ هاتين . . اولهم احدُ ابناءعمومتي ، موظفٌ له في آخر كل شهر مرتب محترم . . وداره ملك له ورجـل مستور وابن ناس . . والثاني آه . . ارجو اعفائي من ذكر اسمه ، تاجر رجله في السوق راسخة . والثالث . . مختار المحلةسعيد ابو عبدالله . . كلكم تعرفونهوالرابع ملاك ذو مال وعقار لا تأكله النيران .

– او لم يعجب واحد منهم ناجية ؟

– هيه . . ان ناجية يا جارتي لا في العير ولا في النفير . . كنت اذهب فاحادث اخاها في الامر بعد ان أجُس نبضها واطمئن الى قبولها فيستمع اليَّ ، ثم يطرق قليلًا ويَفتُلُ شاربه ويَعِدُ خيراً . . فاذهب انا فينعقد المجلس وتترأسه تلك الحية ام شوقي . . اما القرار فمعروف . ان ناجية تعتذر فما في عينها بعد زوجها رجال . . ويشهد الله ان ناجية لو قالت شيئاً من هـــذا فبوحي من اخيها وزوجه وابنائه . . وكأني بها كانت مدلهةً بحب مسعود الثقيل الغليظ . يرحمه الله على كل حال فالرحمة على الموتى واجبة . ليتك رأيت ناجية قبل ثمانية عشر عاماً وكانت في عامهـــا السابع عشر يوم زفوها الى مسعود . . وكان ارمـــل سميناً جسمُه اشبهُ بزكيبة محشوة بالقطن ، وله وجه متهدل اللحم ، ولكن اسألوني عن جيبه . .

مال قارون .. تجارة نافقة وبيوتٌ مرفوعة وحوانيت كثيرة . وعاشت المسكينة مع الكهل ثماني سنوات لم تنجب خلالها ولداً.. مات هو بعدها متأثراً من الضغط الدموي .. وكان مدلهاً بحب ناجيـــة الطريةِ العود فكتب باسمها الطارفَ والتليد وما نال منه ذووه شيئاً .

« وحياتك يا جارة ، لو كان المائتُ ابناً لابي شوقي لما سكب الدموع التي ذرفها وزوجهُ . لقد جمعوا مشايخَ البلد وعلا صوتُ القراءاتِ عن روح الفقيد واقاموا مأتمه اربعين يوماً وليلة وناجية كالبلهاء تصيح كلما صاحت ام شوقي او ضربَ اخوها كفاً بكفْ

« وحوقل وتعوذ بالله واهتزت شرابةُ طربوشه ، وعدد مآثر العقيد وبكاه مائتاً ولا كالموتى .

«وتنتهي ايامُ المأتمِ والعزاء . ويُقبِـل ابو شوقي على أخته فيقسمن ان لا يُغلق بابٌ لمسعود .. بل يظل بيتُه مفتوحاً قائماً وكأن الرجلَ موجودٌ وزيادة .. وان تظلّ ناجية سيدةَ بيتها ومكانها .

« اما واختُه من الولايا ... وشابةٌ على قسطٍ من حُسنٍ ، وثريةٌ يطمع في مالها الطامعون فمن غـــير المعقول ان تقيمَ على حزنها في دار يسرحُ فيها الخيّال لكبرها وتهبطهـــا الوحشةُ في رابعة النهار .. اذن فأبو شوقي وأمهُ وشوقي واخوُته واخوا ُنـه يأتون ليَفكِـّوا وَحْدة العمةويؤنسوها فلا تموتُ غماً بعدمسعود.

«ويا لها من تجارة رابحة . لقدباعوا ما يملكون من اثاث واجروا دارَهم واقبلوا على العمة ضيوفاً اعـزاء .. وايّ ضيوف . ايامٌ واذا بها الضيفة وامُ شوقي صاحبةُ الحوْل والطـول تأمرُ وتنهى

فلا يُردّ لها امرٌ ولا تُخالَفُ رغبةٌ ، ولا يكلفها الامرُ اكثر من مسايرة بسيطة لناجية.. وحسبُها ان تتيهَ على نسوة الحي ويطاول أنفُها السماء .

« وتولى ابوشوقي شؤونَ اخته المالية ، فباعَ واشترى وحطّ وشالَ وغيّر وبدّل وبلّع ما بلع وظل يترحم على مسعود كلما قام او قعد . وملأ جدرانَ البيت بصور الرجل واستأجر المقرئين يتلون آيات الكتاب الكريم على قبرِ مسعود كلّ يوم جمعة . وصارَ يحتفلُ بذكرى وفاته مرتين في العام .

« ايه ، هكذا يكون الضحكُ على الذقون . لقد قصدوا من وراء ذلك ان يملأوا رأسَ ناجية بذكرى الرجل فلا تفكرُ في زواجٍ جديد .. شأن الخفيفات من النساء ! واصطادت ام شوقي في ماء عكر حتى أوقعت بيني وبين ناجية . قالت لها افتراءَ وكذباً إنّ أم يوسف تجلس بين جاراتها وتقول: لولا مالُ ناجية لما فرحت بخطيب يدقّ بابَها ، والكلام بيننا يا جارة .. الامر صحيح .. وزواج البنات في هذه الايام أمنيةٌ عزيزة فكيف بالأرامل ؟

« ايه مالي ولها.. والله لولا محبتي لناجية واشفاقي ان يبلعَها اخوها واهلهُ لَما سعيت .. مجنونة ليظل مالُها حلالاً زلالاً على ابي شوقي وبناته واصهاره ، لابنائه احسنُ الكليات ولبناته افضلُ الازواج ولكن مالي انا ولهذا كله ؟ »

« ووقفت ام يوسف والتفت بملاءتها ونهضت قائلة : « لم يعد لدي ما اسليكن به فامهلنني حتى تتزوجَ بنتُ ابي شوقي . »

واطلقتها ضحكة عالية وانصرفت عجلانة، فلا تحترق الطبخة التي تركتها على النار .

●

ولم نرَ امَ يوسف لايام فقد شُغلت عنا كما شُغِلَ اهلُ الحي جميعاً بعرس سعاد بنت اخي نجيـــة .. وراحت المدعوات من النسوة يتهيأن للحدث بجديدِ الثياب وافانين الزينـــة .. اما ام يوسف فبالرغم من ان امَ شوقي كانت احذَر من أن تجعل من مناسبة العرس مدعاةً لاصلاح ذات البين فلم تَدعُها اليه الا انها — اي امَ يوسف — نشَطَت للامر ايَ نشاط .. فخبرٌ من هنا وقصةٌ من هناك، ولها من ذلك ذخيرةٌ تتحدثُ فيها شهراً وبعض شهر . مرت بنا قبلَ العرس مروراً خاطفاً فقالت : « بشراك يا جارة .. لقد ابتاعتْ ناجية ثوباً ملوناً وحذاء وزينةً للعرس وطرحت عنها السواد .. هذا اول الغيث » وضحكت ضحكتَها العتيدة ثم انسلت كما جاءت على عجل . واطلت علينا بوجهها في اليوم التالي، وقالت : « لقد قصتْ ناجية غدائرِها وارسلت خُصلاتِها إرْسالاً كما تفعل المتفننات . شاهدتها بالامس عائدةً من لدن الحلاق ضاحكة السن منفرجةَ الاسارير . وعندما مرت ببابنا التفتتْ والقتْ التحيـــة وسلمت تسليمَ الصديق وسألت عن صحتي وصحة الاولاد .. ايه انا لك يا امّ شوقي فاصبري علي شهراً . شهراً واحداً فقط .. »

وصرنا نسمعُ فيما بعد من النسوة الجاراتِ ان المياهَ بين ناجية وام يوسف قد عادت الى مجاريها، وان الاولى قد انتهزت فرصةَ انشغال زوجةِ اخيها بالعرس وذيوله فصارت تتردد على بيت الثانية

بين يوم ويوم .. وصرنا نسمع ونرى من اثواب ناجية الوانـــا واشكالاً بعد ان كنا لا نعرفها الا سوداء كالغراب . ولعل انهماكَ ام يوسف بذلك كله قد باعدَ بين فترات زيارتها لنا . حتى كان مساءً اقبلت فيه علينا مهرولةً كعادتها ، وما الحت لها امي بخبر ناجية حتى قالت :

«بيني وبينك ياجارة .. لقد بدلَ عرسُ بنت ابي شوقي ناجية غير ناجية .. فاذا اثوابها خضراء حمراء ، وشعرها يتضوع بالعطر ، واظافرها مصبوغة بالاحمر ، واحذيتها عالية الكعوب .. وانظارها في غير اتجـاه قبر مسعود . سبحان المغيِّر .. منظرُ عروس في جلوتها تُزَفُ الى رجل .. قد هدم خُططَ ام شوقي من اساسها وحرك في ناجية شجوناً ورغائب . ما إن قلتُ لها بالامس ان امنيةَ العمر ان أراها عروسا وان كلمة منها كفيلةٌ بتحقيق المشتهى فيأتيها فوج تنتقي منـه واحداً يستأهلُها حتى قالت « والله انت صديقة يا ام يوسف .. وما اراك الا تريدين خيري فافعلي ما تشاءين » .

وابتسمت امُ يوسف بخبث وقالت : « بيني وبينك ياجارة هذه نفس وناجية بشر .. والله لن اهدأ حتى أزوجها وانفُ ام شوقي في التراب .. »

أُمُومَة خيّرة

عادت تجر الخطى جراً لتجد ولديها والاستفهام يطل من عيونهما وقد تركزت عليها .

ـ اماه من يكون هذا الرجل ؟

وخفضت « نبيهة » عينيها وامسكت كلاً من ولديها بيد وجرتهما نحو اقرب مقعد وراحت تمسح على شعرهما بحنان .. ولكنهما ظلا ينظران اليها بعيني والدهما في تساؤل يضيق بالغموض ويبرم بالاحاجي .

وماذا عساها قائلة ؟ هل تقول بان هذا الرجل الكريم الذي لايحضر الا وفي يمينه باقة زهر وفي يساره حلوى وغيره للصغيرين .. جاء يعرض عليها الزواج وعليهما ابوته ..

لا ، لن تقول شيئاً من هذا .. فلن يفهم الصغيران شيئاً . وكل ما سيفعلانه هو ان يهزا رأسيهما في حيرة ، ثم ينطلق كل منهما الى احدى لعبه ويتركانها تتأمل نتيجة الصراع في نفسها . فهما اصغر من ان يشعرا بهذه المعركة التي احتدمت في ضمير امهما ، وخرجت منها منتصرة .

ولكن هل انتصرت فعلاً ؟ وهل تسمي شباباً تجاهلته بقسوة بالغة ووشوشة أسكتتها بحزم ووعداً اصمت دونه الاذنين .. هل تسمي ذلك كله انتصاراً وغلبة ؟ ؟

اذا كان في تمسكها بالمنطق الذي اصطنعته ، والقيم التي اتخذتها نصراً لها فلمَ لم يسكت ذلك الوجيب في قلبها .. والتبرم في روحها ؟ .

* * *

انها شابة . لم تنفض يدها من عامها التاسع بعد العشرين الا قبل ايام .. وهي جميلة اذ لم تقسُ اصابع الحزن على قسماتها كل القسوة .. فابقتها وسيمة وادعة . وهي ضعيفة .. انها امرأة قبل كل شيء .. والحياة كما بلتها سفرة مخيفة لا بد لها من رفيق ..

لقد تجاهلت في غمرة انتصارها لمنطقها كل هذه الاعتبارات ، وحشرتها في زاوية مقرورة من قلبها .. وكفنتها باثواب المراوغة .. لتلبس ثياب الشهيدات الكريمات. فيالها من غلبة .. تفوح منها رائحة الهزيمة !

* * *

وتطلق صاحبتنا آهة .. وتعود تمسح على شعر صغيريها في حنان وتقول .. « يا لي من انانية ! كيف سمحت لشبابي ان يطالب ولوجودي ان يحاسب وانا لست لنفسي بقدر ما انا لهذين الصغيرين؟

«إنني امهما وابوهما» .. ولكن ما لها لم تقل انها وفية لذكرى رجلها الراحل ؟

الوفاء ...

وشعرت بالكلمة تخرجُ من فكرها باردة الملمس ، خافتة الصدى . هذه الكلمة التي كانت في يوم من الايام قيداً يحول بين شفتيها والبسمة .. ويشدها شداً الى قبر زوجها . فلا تنشق من

الدنيا الا رائحة الذكريات .. فما للقيد قد تراخى والكلمة قد تلفعت بالبرود ؟

لو جاءها هذا الرجل نفسه خاطباً في الاعوام التي عقبت وفاة الزوج لأعرضت واشاحت . ثم حدقت في الصورة الكبيرة التي لزوجها على الجدار وقالت .. « هل بعد هذا حبيب ؟ »

ولكن أعواماً ثمانية في الجفاف والانقطاع علمتها كيف تؤمن ان النفس كالنبات لا تفتأ تلتمس الاشعة الدافئة ،والنهلة المروية ، والظل الوارف .

اجل لقد بات من العسير عليها الآن ان تتشدق بوفائها فقط فتعزو اليه امساكها عن خوض معركة الحياة من جـــديد .. انها بشر .

ولكنها ام صغيرين ايضاً ، فان تمسكت بموقفها فلأجل هذين الصغيرين وبدافع من امومة خيرة عطوف .

ولقد ذاقت هي نفسها مرارة اليتم ، وكانت صغيرة مع اخوين لها ،ولكنها لم تجرعه صرف المرارة الا بعد ان تزوجت امها من جديد .

انها لا تستطيع ان تلوم أمها ،فقد كانت هي الاخرى شابة ولم يكن لها من يأخذ بيدها ويسوس معها اسرة كبيرة،وكان الرجل الذي تقدم اليها وجيهاً مرموق المكانة فأغراها بالمركز واغرقها بالوعود فتزوجته ليشقى ابناؤها ، وتشقى هي بشقوتهم . اذ تبين لها ان قلب الزوج اضيق من ان يتسع لها وحدها، ونفسه اسقم من ان تكون سمحاء كريمة . ويده ابخل من ان تنبسط لابناء ليسوا

له . فجعل من حياتها جحيماً احمر ولوعة مستديمة . كان له ابناء آخرون من زوجه المائتة فراح يتهمها بايثارها ابناءها على حساب بيته وابناءه فتضطر الى اغفال فلذات كبدها لئلا تسمع منـــه ما تكره .

كان ديكتاتورياً فظاً يأمر فيطاع ، يريد البيت في سكون بيوت الله ، وويل لمن تغريه حداثته بلعبة يرتفع معها ضجيجه . إن له مع زوج أمه حساباً دونه حساب ملكي الموت .

هل تنسى ضجيجه وهديره والنعوت التي كان يطلقها على اخويها بوقاحة مسرفة ؟ هل تنسى يوم أمسك برقبة اكبرهما وانهال عليه بعصاً غليظة لانه كسر غصناً في الحديقة ؟

لقد شل الجافي يدي أمها . وكان شلها مطلقاً حين وضع يده على كل ما خلف والد ابنائها . ثم راح يعارضها في ضرورة الانفاق على تعليمهم . .

اجل . . انها تذكر . . وترى شبح الامس يتهددها ويتهـدد غدها وغد طفليها .

ظلت شقية واجمة حتى تزوجت . . . ولما تزوجت كان زواجها اقصر من حلم ليلة صيف .

نفس الدور الذي لعبه القدر مع امها يعاود لعبه معها . ونفس الحرمان التي جرعته واخويها صغاراً يجرعه صغارها، اذ يموت الزوج ويخلفها لشقاء جديد ، فتكفر بالموت والحياة وبارادة تلهو بمصائر البشر ببساطة متناهية وتحبس نفسها عن الدنيـا وتصمم ان تموت باصرار مجنون فما يردعها عن جنونها وكفرانها بالحياة الا هذان

الصغيران . نظرت اليها فرأت في وجودهما امتداداً لحياة رجلها المائت الذي احبته بكل جارحة من جوارحها . وحدقت في عيونها فلمحت فيها طيفه يسوق اليها التشجيع والعزاء مقرونين بالضراعة . فاقسمت ان تمسح على لوعتها بيد العطف وان تستنبت صحراءهما زهراً ... وان تحمل رسالة التفاني الى النهاية. وظلت هكذا سنوات تصد الراغبين في رفق واناة الى ان لاح هـــذا الرجل في أفق حياتها . فوجدت فيه شيئاً يختلف عن الآخرين .. لقد لمست فيه حناناً وتفهماً .. ومشاركة . ولكنها صدته برفق كما فعلت بالباقين .. اذ آلت على نفسها ان تبصر في الرجال جميعاً وجه زوج امها ..

هكذا قررت وانتهى الامر .. فما لها وللتفكير الآن . انها أمّ ... وستبقى .

بائع صحف

لن يضيع صوته في زحمة الاصوات ، ولن يختنق في غمرة الف نداء ونداء يجأر بها باعة المثلجات « واللبان » الاميركي والشطائر والتين الشوكي المثلج . ولن يموت قط مع صوتُ نـــدل المقاهي المصفوفة على جانب الطريق ينغمون : « هات ناره وواحد سكر قليل وشيشه يا ولد ».. ولن يبهت هذا الصوت ذو الشخصية امام نداءات سائقي السيارات .هذا يريد لصيدا راكباً، وذلك يطلب لصور راكبين .

صوت عبود صوت واضح متميز،ألفتُه مذ زاد عدد الصاخبين واحداً بانضمام عبود الى زمرة بائعي الصحف في محلة السور ببيروت . ولِمَ اختار عبود ان يكون بائع صحف بالذات ؟ لقد سألت نفسي هذا السؤال، الى ان سمعت الجواب من عبود نفسه فيما بعد . لقد كان ابوه بائع صحف والناس على دين آبائهم . وماذا يعمل غير ذلك ؟ انه زاهد في تجارة اللبان الاميركي . وراغب عن بيع الامشاط والدبابيس والطواف بهـــا في صندوق زجاجي ؛ فهذه -- على حـد قوله - بضاعة نساء والنساء لسن شاريات كريمات ، فما كان بعشرة قروش دفعن فيه الخمسة .. وما كان بخمسة ، ما من بأس عليهن لو طلبنه مجاناً « على البيعة » والبيعة لا تزيد قيمتها عن بضعة فرنكات بحال .

وانف صاحبنا ان يلتمس الخبز من وراء اليانصيب .. فقد كان له رأي في هذا اللون من التجارة طالما ادى به الى العراك مع جاره خميس الذي لا يفتأ ينط كالقردة صائحاً : خمسون الف ليرة جائزة .. جرب حظك .. وكان لعبود ذراع قوية والا لما كان يخرج كل مرة منتصراً ومزهواً بهذه الخارطة من الخدوش التي كانت ترسمها اظفاره على وجه خميس .

وأذكر عبود عندما رأيته للمرة الاولى من خلال واجهة حانوتي الزجاجية وتحت ابطه رزمة من الجرائد حملها ووقف بها في حيرة ملحوظة . فصناعة النداء جديدة عليه وفن الترغيب لم ينعقد له لواؤه بعد ، فمن كان بحاجة الى صحيفة فليتقدم .. وما من حاجة الى النط والقفز والتهويل .

واذكر ايضاً ان الظهيرة ادركته ورزمته لا تزال على حالها سمينة ، سميكة ، دون ان يشير اليه افندي يطلب نسخة يحملها ملفوفة مطوية شأن العارفين النابهين .

وظل هكذا الى العصر حتى اقبل عليه رجل كان اباه .. ما ان ابصر الرزمة على حالها حتى انهال عليه ضرباً وركلاً وصياحاً .. الا تنادي ايها الخائب؟. او يسمع الناس من الساكت ؟. الجريدة كالخبز ايها الاحمق !.. لا يريدها الناس الا طازجة !..

ويخطف الاب الرزمة ثم يلبس دور المهرج فتنفد النسخ في بضع ساعات .

هذا وعينا عبود على ابيه يعجب من مهارته في التصريف ويشتهي ان يكون على شاكلته .

ولم يكن درس الوالد من الدروس التي تنسى بدليل، ان عبود في اليوم التالي كان غيره بالامس.

لقد انبعثت نداءاته.. خافتةً اول الامر.. ثم علت طبقتها كلما كان يمر عليه «في الكار» يوم جديد.. حتى كان بانتهاء الشهور الاولى الثلاثة ابرز بائعي المنطقة.. حقاً ان الولد سر ابيه.

كان عبود ذكياً ما في ذلك شك.. خفيف الروح والظل.. وشخصاً يتمتع بنصيب من قوة الفراسة. اطرف ما فيه نداءاته تلك التي كنت اعطيها اذني كلما وجدتني خلواً من العمل فهو يصطنع الاخبار بالشكل الذي يستهوي المارة كل حسب عقليته.. وعبود حر في ان يقيم الدنيا ويقعدها.. وحر في ان تكون الحرب في كوريا او في اي مكان آخر من المعمورة.. صحيفته للموظفين تبشر بالكادر والعلاوات.. وللتجار بالتسوية المشكلة الاقتصادية القائمة بين سوريا ولبنان.. اما الطلبة فحسبهم اثارة ان يسمعوا نبأ عودة ريتا هيوارث بالخير الى علي خان.. بقيت لعبود طبقة هي كثرة بين الزبائن، ولهؤلاء ينطلق خيال عبود ما شاء له الانطلاق ويتفنن في ابتداع العناوين وهو ادرى بما يرغب هؤلاء في صحيفته. وتنطلق النداءات كالقذائف. الرجل الذي ذبح ابنه، المجرم الذي دوخ القوات.. والفلاح الذي وجد كنزاً مطموراً.

هنا تتسارع الايدي وفيها الفرنكات تختطف الصحيفة، وتظل يد الصبي تروح وتجيء تدفع النسخ وتتناول الثمن.. فتستقر الصحيفة في يد واحد يقرأ حروفها العريضة.. ويحدق الى صورها ثم يحشوها في جيبه ليلف بها زاد الغد.. وواحد يأكل حروفها

اكلًا ليستوفي بالقراءة كل ما دفعه فيها . فمن الاخبار الى المحليات الى الاعلانات .. لقد دفع فيها عشرة قروش فله حق في كل حرف فيها ..

هكذا كان عبود كما عرفته طيلة سنوات ثلاث .. الى ان كان مساء رأيت فيه عبود كعادته متهلل الاسارير .. متهدل السروال . وخصلة الشعر الشقراء تتدلى على جبينه .. وتحت ابطه رزمة من صحف المساء ..

واخذ مكانه قرب موقف الحافلة يبيع النسخ لمن اطلوا برؤوسهم منها .. وكانت عيني عليه ،فقد كنت اجد لذة في تتبع حركاته .. ورأيت راكباً يطل برأسه فيدفع لعبود ورقة نقد ادركت من لونها انها من فئة الخمسة والعشرين قرشاً وطلب منه عدداً من جريدة البلاغ ،وناوله عبود العدد ومد يده الى جيبه ليعيد للرجل ما تبقى له من اصل المبلغ .. هنا تحركت الحافلة .. والرجل يستحث الفتى فركض عبود وفي يده النقود .. وفي تلك اللحظة اقبلت الحافلة الثانية على الخط المعاكس وكان اسوأ ما في الامر انه في غمرة اندفاعه لم ينتبه لها سيما وان التقاء الحافلتين كان على المنعطف ..

وارتفعت صيحات الجميع محذرة مما اربك الصبي فوقع ، ولم يتمكن سائق الحافلة القادمة من تدارك الامر فداس بعجلاته الحديدية القاسية الجسم الغض .

وانتهى عبود .. انتهت شخصية طريفة احببتها والفت صوتها . انتهى وتحت ابطه رزمة صحف تحت التصريف تفرقت هنا وهناك

وقد حملت رشاشاً من دمه كأنها عناوين حمراء ضخمة مثيرة، وبقيت ملقاة حتى بعثرت بعضها الاقدام واخذ بعضها قوم لم يبالوا ان يقرأوها بعد ان قصوا اطرافها الملوثة .. واعترى المحلة في اليوم التالي وجوم قابض .. او هكذا خيل الي ، ولم اسمع صوتاً لبائع صحيفة .. الا واحداً رقيعاً جاء يسعى في المساء منادياً على جرائده بصوت ناشز . وكان اكثر ما غاظني منه ان سمتعه يــدلل عليها بتفاصيل حادث عبود الذي مات تحت عجلات الحافلة ..

نافخ الدواليب

لم اجد ما افعله لأروح عن نفسي من السأم الذي جثم عليها ثقيلاً قابضاً خيراً من دخول احدى دور السينما للتفرج على فيلم في حفلة السادسة مساء ، التي اصطلح المتفرنجون على تسميتها بالحفلة الماتينيــــه .

ولم يكن في القاعة الفسيحة سوى نفر من المشاهدين جلهم من طلبة المدارس . فاتخذت لنفسي مقعداً ، وما هي الا دقائق حتى بدأ العرض فتسمرت عينـــاي على شاشة راحت تعكس صوراً ومشاهد لفيلم من تلك الافلام المطبوخة على عجل والتي لايستسيغها المشاهد ، الا ان يكون ذا ذوق في الفن تنقصه السلامة . وضقت ذرعاً بالرواية ولما يزل العرض في منتصفه مـع سابق تقديري بان الفيلم لن يكون قوياً ، فالدور هنا عادة تدخر الافلام القوية لعطلة آخر الاسبوع حيث تضمن عدداً من المشاهدين يزيد بكثير على عدد روادها الذين يختلفون اليها في اواسط الاسبوع ليقتلوا فراغهم باي شيء . ولكني لم استطع الصمود الى النهاية فآثرت الانسحاب ، دون ان افكر في وجهة معينة اقصدها . وتسللت من الباب لاجد الدنيا في الخارج وقد لفتهـــا عتمة الغسق وبدأت تستنجد بانوار الكهرباء . ومضيت ابحث عن دراجتي بين تلك الدراجات المسندة الى الحائط ، اذ هي هنا — اي الدراجات — وسيـــلة الانتقال

الوحيدة في هذا البلد ، واذا بي ارى صبياً ينحني على دولابها عابثاً « بالبرغي » المشدود فيرتخي العجل المنفوخ بحركة زفير قوية

وفوجىء الولد بيدي الكبيرة تستقر على كتفه فما جرؤ على ان يرفع رأسه الي . فسحبته بقوة فانتصب وتبينت وجهه الملوث بزيوت التشحيم . لقد كان الصبي الذي يعمل في ورشة الدراجات القريبة . هنا وضح الامر لدي اذ لم تكن هذه المرة الاولى التي يعبث فيها بدراجتي ، وتذكرت ما كنت اسمعه من بعض اصدقائي كيف كانوا يقبلون على دراجاتهم التي يتركونهـا بقرب النادي او السينما او منازلهم فيجدون العجلات وقد افرغ هواؤها وصار من المتعـذر عليهم ركوبها . ووجدت الامر معقولاً بالنسبة للصبي يتسلل فيعبث بالاطارات حتى اذا ما تعذر دوران الدواليب حين خروجنا من دار السينما كان لا بد لنا من ان نقصد المحل لنفخها . فينال قروشنا من اقرب طريق .

وشعرت بالغيظ يأكلني فازداد ضغط يدي على كتفه وقلت :

ـ اذاً ، هو انت . انها وظيفة طيبة . .

وانهارت اعصاب الفتى وصار يتلفت يمنة ويسرة والعرق البارد ينصب من جبهته اللامعة الصفراء .

ـ دعني يا سيدي . . اقسم بانني . .

ـ بانك ماذا ؟ لقد ضبطتك بنفسي .

ـ انني . . اوه لن تفهمني لو تكلمت .

ـ ماذا لديك لتقول مبرراً هذه الدناءة ؟

وهنا انتفض الولد وامسك بيدي وازاحها عن كتفه وقال :

- لا تتسرع باتهامي فلست دنيئاً ، دعني بالله ، الا تفهم ؟
وبدأت الدموع تغسل عينيه . وشعرت بغضبي يتحول الى لون من الحيرة امام توسلاته لي في الا اشكوه للبوليس واعداً بنفخ العجلة دون مقابل في هذه المرة . وتخلص الولد مني قبل ان يسمع كلمة مطمئنة ،واقبل على عجلتي يقودها الى محـــله وسارع باحضار منفاخه الكبير ونفخ عجلاتها ،ثم مر عليها بخرقة جلت غبارها ،ودفع بها الي وتلك النظرة المرتعشة تطل من عينيه .
وابتسمت انا قليلاً لأخفف من حدة تخوّفه ، فاطمأن اليّ بعض الشيء وقال : « لو مررت بي يومياً لاعتنيت بدراجتك . . مجاناً . »
وازدادت بسمتي اتساعاً فزال بعض مـا في نفسه وتجرأ على ان يسأل :
- هل ستشكوني ؟
والواقع ان فكرة ابلاغ الامر للمركز لم تخطر لي ببـــال فالامر في نظر مسالم مثلي اتفه من ان يضطرني للذهاب الى المركز ثم الدخول في اخذ ورد لا ينتهيان لاسيما في هذا البلد الذي تهتم فيه السلطات بالصغائر اذ ليس لديها من الكبائر ما تشغل به رجالهـا .
وقلت له وانا استعد لركوب دراجتي :
- كلا ، على ان لا تعود في المستقبل لمثل هذه الاساليب .
وادرت عجلتي باتجاه الطريق المفضية الى بيتي . ومـــا قطعت مسافة يسيرة حتى شعرت بالصبي يتبعني على دراجته . وبحركة منـه سد علي طريقي وقال باضطراب :
- سيدي ، هذه الطريق تؤدي الى المركز وانت وعدتني . .

وقاطعته بجدة :

– ولا ازال عند وعدي .

– «شكراً» قالها الصبي ببطء وهو يتفرس في عيني وهمّ بالعودة. ولكنه تلكأ قليلاً وقال :

– كنت اود ان اقول لك شيئاً .. ولكنني اخشى ان لا تستمع الي ..

ثم تلفت يمنة ويسرة واردف :

– على كل حال ان هذا المكان ليس بالمكان المناسب ..

ولا ادري ما الذي دفعني الى مسايرة الفتى والاستماع اليه . فقد شعرت بنوع من الاشفاق يجذبني نحوه فقلت له : تعال ، واخذته الى مقهى قريب وانتحيت به ركنا وطلبت له زجاجة من شراب بارد .. – ولعله احس بعيني تتفرسان في وجهه فخفض رأسه وراح يعبث باصابعه بحركة عصبية .. وقطعت عليه صمته الحائر حين سألته :

« ماذا تريد ان تقول .. »

– لا شيء .. فقط اردت ان اسأل هل تظنني دنيئاً ؟

ولم يسعفني جواب معقول رزين ارد به عليه فقال : « انني اكاد اقرأ ما يجول بخاطرك . ومن حقك يا سيدي ان تزدري واحداً مثلي .. فانا اعلم ان في عملي هذا ما يدعو الى الخجل .. ولكن ..

– ولكن ماذا ..

– ان ورائي اماً وأخاً واختاً يعيشون على ابرة «امي» وما اربحه انا من وراء نفخ العجلات . انني اعمل في الورشة حتى الخامسة

مساء لقاء قروش قليلة ، ثم يمضي «المعلم» تاركاً الورشة لي ، وهذه فرصتي الوحيدة لاكسب قروشاً آكل بها . كم اشعر بالخجل حين اسمع في المدرسة الليلية دروساً تحث على الامانـة ، وعلى الخلق القويم ، ثم اجدني في النهار مضطراً الى هـذا السلوك . حتى امي التقية لا تعلم سر هذه القروش اليومية ، والا لمــا كانت ترضى بالربح عن هذه الطريق . ان من حظي ان ضبطني شخص طيب مثلك والا لكان مصيري اصلاحية الاحداث . ولكن أليس من التعاسة انني لا استطيع ان اعدك بالكف عن هذه الحقـارة الا اذا اخترت ان اتضور مع عائلتي ؟.»

وسكت الصبي اذ خنقته دموعه. فربتُّ على كتفــه مخففاً ونهضت به لنغادر المكان . وقبل ان نفترق عند باب المقهى اخذ يدي يشد عليها وقدم لي يده الاخرى وفيها قروش وقال :

« انك لا تستحق ان ابتز نقودك ظلماً ، خذها فقـد شاهدتك اكثر من مرة تنتظر دورك لنفخ العجلة . »

ولم ادر ما اقول .. كل ما فعلته هو انني لعنت الدنيــا ثم اخرجت كل ما في جيبي من قروش فضية دفعتها اليه وادرت وجهي خشية ان تطالعني عينان تسكنهما كبرياء جريح .

مَامَا ..

كتب اليها يقول :

« سلوى ، انها مني فلا تطيلي التحديق الى التوقيـع ولا تتعبي عينيك صعوداً ونزولاً بين السطور .

انها مني بعد سكوت متكبر طال لم اشأ ان اخرج عنـه الا بعد ان جاءني من يقول : « لقد صارت سلوى اماً » .

عندها قويت في نفسي دوافع الكتابة ليـنزاح عني بعض ما وجدت وأجد . .

ومالي ابدأ من النهاية ؟؟

دعيني استل حالي مما انا فيه واغمض عيني عن دنيا أُنكرها فاذا انا سالم ، ذاك القديم . يسير فخوراً متأبطاً ذراع عروس حسناء كنتها ، وقد استطار فرحاً حتى ما تلامس قدماه الارض .

ما اقرب الصورة الى خاطري توافيني كلما استدعيتها ، لأعيش على تذكارات حلاوتها ، واقف عندها ساعات ويعصيني خاطري اذا استدعيت غيرها وكأن حياتي انتهت هناك .

ونسير معاً الى بيتنا ذاك . وينتهي الوجود . هل أُثير فيك تذكارات بيتنا ؟ هل اوقظها وقد حشرتها في زاوية من نفسك وغلفتها بألف ستار . تماماً كما تفرز القواقع مادة صدفية تغلف بها كل جسم غريب دخيل لتتقي وخزه ؟

ان اطيل الوقوف امام صورة واحدة ، فهنالك عشرات ..
كلها حلو .. وكلها سعيد .. ولكنها تنضح بالالوان ..

وتنتهي هذه .. ويفرغ رصيدنا منها ، ونأتي على صور كئيبة غيرها .. هذه تذكرني بيوم حملتك الى مستشفى الولادة .. وتركتك الى يد الطبيب المولد... لاعود بعد ساعة فاقبل جبهتك الرخامية وألذع وجنتيك بدموع تأثري فتنحيني عنك برفق قائلة: « الا تنظر للصغير ؟ » ونظرت .. كتلة من اللحم ملفوفـــة في قماط ، وعندما حملتها وطبعت على رأس صغيري قبلتي الاولى لم تختلج عضـلات وجهه بتلك الصورة الـتي يبدو فيهـــا الصغار حديثو الولادة .

واذكر انني قلت : « يا للصغير البليد .. »

وعدت بعد ايام واياه .. وقد غدا هذا الصغير لنا شيئاً عظيماً جنّح آمالنا وعلّمها ان تشطح الى آفاق بعيدة .

فتارة نتمثله صبياً صاخباً ، وتارة غلاماً رشيقـاً .. وطوراً شاباً يشق طريقه في الحياة ويدفع بمنكبيه السائرين .

ولكن ذلك الهدوء في الطفل ، وتلك البلادة لم تكن تُطـمئن ان سيكون لصغيرنا شيء من ذاك ..وكان اكثر ما يثير دهشتنا قلة بكائه ..

وأذكر ساعة ان عدت ذات يوم من عمـلي ظهراً فلقيتني على السلم مضطربة واجفة لتقولي : «سالم.لقد لاحظت على طفلنا شيئاً .. انه لا يرى .. عيناه لا تتأثران بالنور ولو انصب فيهما ولا يختلج لهما جفن قط .. تعال ..»

واخذتني اليه فحملته وكان له من العمر اربعون يوماً ،وحدقت الى عينيه فلم اقرأ فيهما معنى الحياة .. وقربته الى النافذة فلم يبهره الوهج المنصبّ منها مع اشعة شمس الظهيرة ..

ولفني الجزع انا الآخر واستدعيت اقرب طبيب ففحص الطفل واستدار ليواجهنا باقسى حقيقة يسمعها والدان.. ان الطفل اعمى، او هذا ما تقطع به الظواهر.. ثم هنالك اكثر من ظاهرة ازعجت الطبيب وهي ان اطراف الصغير لا تتحرك بمرونة ..

اما انت .. فقد شملك ذهول خشيت عليك منه .. واما انا فقد كان الامر لي صاعقة .. خلتها تدوي في اذني بالامثولة القديمة : الآباء يأكلون الحصرم ..

وتعرفين يا سلوى انني لم اكن يوماً ما من أكلة الحصرم .. وتعرفين اية حياة نظيفة عشتها .. ولكن الداء كان يسري في شراييني مع الدم .. فانا ابن رجل انجب غيري اخاً ولد ميتاً .. واختاً حملت في جسمها ما يحمل ولدي ثم لم ير لها الموت مكاناً بين ابناء الحياة فاراحها .

وها أنذا اؤخذ بجريرة غيري .. فاقذف الى الدنيا بواحد من الشواذ الذين يضيق بهم عالم الاقوياء ..

وكانت هذه هي الحقيقة التي لا تقبل وجهاً ثانياً ..

وما هو الا بعض شهر حتى حل بابني المصير الطبيعي الذي كان ينتظره فمات بعد مرض قصير ..

وضرست انا من الحصرم الذي اكله ابي ..

وتذكرين يا سلوى ، تذكرين كيف انتزعت من احضانك

الشفيقة قطعة منا خامدة .. وحملتها الى المقبرة .. وأرحتهـــا في حفرة وسيعة دفنت فيها احلامنا ايضاً ثم عدت بعينين ملتـاعتين وشفاه يابسة اقول - سلوى .. لا نريد ابناء بعـد .. ولم تقولي انت شيئاً.. اذ كانت امومتك الجريحة اضعف من ان تنتفض.. ولما جففت دموعك بشفتي سمعتك تتحدثين عن الحيـــاة والموت بصوت الفلاسفة ..

وعشنا يا سلوى نتلهى بنفسينا وبطعامنا وشرابنا .. بحاجاتنـا اليومية ، وأغرقتك بالملابس والحلي .. وارتدنا المـلاهي لاملأ عالمك الفارغ فلا تقولي اريد ولداً ..

ولكنك اردتِ .. وارادت امومتُكِ وارادت طبيعتك التي تحديتُها وقسوتُ عليها باصراري..ولكنك - قول الحق - كنت كريمة فيسكوتك..وشكرت لكان فهمتِ وقدرت.. وان كانت كل لفتة منك نحو طفل تتحدث بمدى قسوتي .. بمدى تحكُّمي فيك ..

كنتُ اراك تلاعبين ابناء اخوتك فـــلا تشبعين .. تمسحين الوجوة البريئة الحلوة بأصابع مشتاقة ثم تأخذين البنات ناحيـــة فتربطين خصلاتهن الشقر بالاشرطة الملونة ..

وكنت الاحظك تمرّين بالمحال فتطيلين التحديق الى اللعَب والدمى ثم تتنهدين كمن تقول - يا ليت ؟

وكم مرة ومرة كنت افاجئك امام كومة من ثيـاب ولدنا المائت تشمينها وتمسحين بهـــا دموعك فاخرج وقد استبشعت وجودي معك واحتقرت في نفسي هذه الانانية ..

اجل انت نفسك لم تساعديني من حيث لم تقدري . وكانت حساسيتي المرهفة تجرح المرة بعد المرة، فازداد نقمة على نفسي.. على ابي الذي اضطرني ان اكون « علائياً » بلا جريرة مني ..

وما ذنبك في ان تتحملي وتعيشي مطعونة الكبرياء كامرأة ، ومبتورة الرسالة كأنثى، لانني لم انظر الى الامر حين اقدمت على الزواج بك نظرة بعيدة .. بل لم يخطر ببالي ان اللعنة التي تعيش في دمائي ستفعل فعلها في اولادي ..

وكم كنتِ قاسية يا سلوى حين اقبلت عليّ في يوم صرفت بياضه مع شقيقاتك في بيت احداهن فعدت في المساء تقولين .. «سالم، لم لا نتبنى ولداً يكون عوناً لنا على الحياة..ورددتك رداً جافاً .. ولكنني ُثبْتُ الى نفسي فعذرتك. لقد قتلك الفراغ ولم ينفع شيء في إسكات حنينك الى سماع كلمة منغومة يناديك بها صغير يتعلق باذيالك ..

وكانت طعنة جديدة لم تعرف معها عيناي النوم ليلتئذ .. ونهضت في الصباح بفكرة .. فكرة ما كان اقساها على كلينا .. نعم اي حق في ان يشدك رجل لا ينجب غير الشواذ ؟

ان المرأة ترى في الرجل وسيـــلة الى غاية .. فالامومة فيها اقوى العواطف على الاطلاق.. ان المرأة تزهد في الرجل ولكننا لم نسمع بالام التي ابغضت ولدها .

الطلاق ...

وظللت اصارع العزم ويصارعـني .. عشت شهراً في جحيم

التردد ..ورحت ابحث عن فلسفة القوة،فلسفة لا تعترف بالضعفاء. وجدتها في « نيتشه » فأسْكَتّ فيها نواحي التردد في نفسي .

لم يكن من السهل ان اتخلى عنك وانا لك من تعرفين .. وقدرت بان النبأ سيكون ضربة لك مثل ما هو لي .. ومع ذلك أقْدَمْتُ .

فلوعة شهور لا تعدل ان تعيشي بلا ابناء ، طيلة العمر . وحسمت الامر في ساعة تبخرت فيها نزعاتي ولم يبق مني الا فكرة مثالية سامية ..

وارسلت لك قسيمة الطلاق واخذت طريقي الى اقرب مكتب سفريات حيث ابتعت تذكرة الى اوربا ، دون كلمة تفسر هذا العزم المفاجيء حتى ولا لشريكي في العمل .

ولم اشك في ان هذا المسلك الشاذ قد قفز بي في نظرك ونظر الناس الى قائمة المجانين والشواذ وإن بحار الحيرة التي تركتك تترددين فيها قد كادت تغرقك . واقمت هناك اعواماً ثلاثة لم اعدم خلالها من يخبرني بزواجك زيجة موفقة . ولم ادهش . فلك من حلاوتك وثرائك ومركز والدك الاجتماعي ما يكفل لك رجلاً طيباً قد لا يحمل لك مثل حبي العظيم ولكنه قادر على ان يهبك ابناً .

ورزقت بالولد .

وعدت انا .

عدت لا لأعترض طريقك . ولا لأجعل من نفسي بطلاً في خاطرك

بل كتبت لامحو بعض ما قدرتُ ان يكون قد علق بفكرك تجاهي .. ولأعيش في نفسك فكرةً نظيفة ..

والآن حسبي من الحياة ان تكون لك لذة الاكتفاء ، فقبّلي عني هذا الصغير الذي منحك ما عجز عنه حبي وتفانيّ وكلُ مافعلته لاجلك ، فغلبني بكلمة منغومة . !

ماتَ أبُوهُ

نظر الى جدته بعينين قلقتين وهي تلوك كلماتها مولولة منتحبة:
« مات ابوك يا ممدوح ... مات ابوك . »

ولم يدرك بالضبط ما تعنيه جدته العجوز . ولكن مـــا بال البيت الصغير يمتليء بالنسوة اشكالا والواناً . وهل جنت امه حتى راحت تشد غدائرها الطويلة وتمزق ثوبها .

مات ابوك .. وما تعني هاتان الكلمتان ..؟ لقد كان مدلولهما ابعد من ان يعيه صغيرنا ممدوح ، فما ان مزق اذنيه عويل النادبات والمتباكيات حتى انسل فزعا مرتجف الاوصال من باب الدار وهرب الى حيث لا يسمع ولا يرى وجه ابيه الاصفر الشمعي الذي طالت نومته على مخد، ولا اولئك النسوة اللواتي تحلقن حول فراش ابيه ورحن يطلقن تلك الصيحات النكراء التي افزعت قلبه الابيض الصغير .

وجلس في العراء على حجر خشن .. لذعته الشمس فلم يشعر ، وعضه الجوع فلم يبال ... وظل يتلفت يمنة ويسرة خشية ان يرى احداً جاء يطلبه .. فهو يخشى العودة ولا يريد ان يموت كابيه .. وظل هكذا الى المساء حتى لم يعد بوسعه ان يحتمل جوعه وقلقه وصبره وفزعه من اشباح المساء التي خالها مختبئة وراء الاحجار .. فعاد الى البيت يرتجف في نوبة بكاء زادت عنفاً. وحدة عندما لاقته

امه باكية واخذت جسده الطري بين يديها وشدته الى صدرها ولذعت وجهه بدموعها وهي تقول :

« مات .. مات ابوك .. يا ممدوح »

واستدار بعد هذه الكلمة ناظراً الى فراش ابيه ، فكان خالياً كئيباً . اذن فحق ما قالته جدته وتقوله له امه. وما هذه الفورة من الاسى والالم والفجيعة الا لأن اباه مات.. او هكذا يكون الموت الذي عرفه في حكايات جدته .. ؟؟

ولم يصب ليلتها طعاماً. ظل ملتصقاً بامه حتى غلبه النعاس فنام. وحلم احلاماً سوداء محاها النهار حين بدا ، وخنقتها حيوية الصغار واستجابتهم للحياة . فنسي او كاد ان اباه قد مات وراح يفكر بشؤون لهوه وهي كثيرة .. ولم يعد يذكر بعد شهور من امر ذلك اليوم المعتم شيئاً الا حين تسهم امه فتبكي وتبكي معها جدته بكاء لا دموع له فيبكي هو الاخر وتشرّ من عينيه دموع ما تلبث أن تمسحها دعوة الى لعب او طعام .

وانقضى عام وجاء غيره ، ففاضت دموع امه وحل في عينيها تطلع الى افق جديد. وكثر الحاف جدته عليها في ان تنسى ما هي فيه . « فكلنا لها وما البقاء الا لله » . ولاح في افق الدار رجل كانت جدته تستقبله بابتسامة تمتد على سعة فمها .. وفهم ممدوح من ابناء الجيرة وبناتها الثرثارات ان الرجل سيأخذ امه زوجةً له .

ولقد صدقوا ! . ففي ذات عشية جاءت الى الدار عجائز وصبايا صحبن امه بعد ان احسنّ صقلها وتمشيطها واخذنها معهن الى بيت الزوج الجديد ، فتعلق باذيلها باكياً مما كان من واحدة من

النساء الا ان اقصته عن امه بيد معروقة ، فازداد بها تشبثاً فأخذته هذه بين يديها وقبلته ثلاثاً وعشراً ، ورمقته طويلاً بعينيهـــا الدامعتين ثم اسلمته الى جدته بين عويله وصياحه . وركبت هي العربة التي اقلتها الى بيت الزوج الجديد .

وعاد هو مع جدته مجدد اللوعة . فما ان وطئت قدمه الدار حتى سارع الى ثوب لأمـــه معلقٍ على مسمار راح يشمه وينتحب .. وخيل اليه في تلك اللحظة انه سمع من جديد ذلك الصوت الاسود يقول .. مات ابوك يا ممدوح ، وامك ايضاً .. قد ماتت ..

وفي الصباح اخذته جدته الى امه فردت اليه روحه . حتى اذا نهضت جدته عائدة اقبلت عليه تأخذه ، فكان له مع امه مثل موقف الامس .. ولكن عيناً باردة اطلت عليه من وجه زوج امـــه فتداعت اصابعه ، وعاد مع جـدته يجر جناحاً مكسوراً . وكانت القصة تتكرر ما بين يوم ويوم فيعود في كل مرة وفي نفسه اسى عاصف ، وفي قلبه عتب على امه يزيد يوماً بعد يوم .

مسكين ممدوح ! لقد تعلم البغض صغيراً .. اخـذه درساً عن ذلك الرجل واهله . وتعلّم ايضاً ان يكره امه التي تركته مفضلة عليه هؤلاء الثقلاء .. زوجهـــا واخته المعروقة اليدين . وكان كلما كبر يكبر معه نفوره من امه ! . فلم يعد يلحف على جـدته في ان تأخذه اليها بل صار يتهرب من طريقها ويفسد عليـه محاولاتها في ملاقاته .

كان اذا قابلها في الدرب سلّم للريح ساقاً خفيفة . ويمتنع عن دخول المنزل كلما اشتم رائحتها فيه . وقد سارت بها الحياة في غير

الطريق التي سارت به فيها . فانتقلت وزوجها بحكم عمله الى مدينة اخرى وبقي هو في بلدته تجاراً شاباً نشيطاً حسن العمل والربح . وعاش في بيته وحيداً اذ تركته جدته الى الرحلة التي لا بد منها .

وغابت امه سنين فلم يقع له بصر عليها . ولم يعد لها في قلبه مكان . كتبت له مرة فلم يردّ ودعته لزيارتها فضحك ساخراً . وابى وقد كبر واصبح اكثر تفهماً للاشياء وطبيعة الحياة وشئونها ان يجد لها عذراً في اتخاذها زوجاً ثانياً بعد ابيه .

لقد نظر الى الامر من ناحية انانية صرفة . لقد دعته يجر حياة جافة لا تدفئها انفاس انثى ، وخلاه رحيلها يحيا في جو « مات ابوك » اعواماً من الجدب العاطفي . اذن فهي ليست مستحقة ان تكون له اماً . ولكنها كانت امه .. وكلمة غضب تلفظها شفتان في سورة حنق لا تخنق نداء الدم .

عاد يوماً الى بيته في المساء متعباً بعد عمل يوم طويل فراى على عتبة الدار امرأة متكوّمة وبقربها صبي . فما ان رأته هي حتى هبت صائحة : « ممدوح يا ابني .. انا امك الا تعرفني ؟ »

ولم تختلج من وجه ممدوح عضلة واحدة ولم يحن قامته المنتصبة ليمكن شفتيها المشتاقتين من خده ، بل مد يده الى جيبه واخرج مفتاحاً اداره في الباب ، ودخل واغلق الباب وراءه . ثم راح يتمشى في الغرفة بعصبية . ماذا تريد منه بعد كل هذه الاعوام ؟ لتسكت .. ان نداءها وهمسها باسمه من وراء الباب يمزقان اعصابه . وضعف اخيراً امام لهفتها فمد يده الى الباب وأدار المفتاح ولكنه ابقاه مغلقا ثم عاد يتمشى من جديد . وبعد لحظات خالها دهراً ارتفعت زلاجة

الباب وانفرجت الدفتان وأطلت امه برأسها .

كان وجهها مغسولاً بدموعها .. له حلاوة الوجه القديم ، وجه امه . امه .. ووقف قليلا وتطلع اليها فرمت نفسها عليها وامسكت وجهه بين راحتيها واشبعته تقبيلاً . وانتصر في نفسيهما الدم الواحد.

قالت وقد هدأت سورة انفعالها : « الا تدعو الولد ؟ »

قال : « اي ولد ؟ »

قالت : « أخوك .. ابن الرجل الاخر .. الذي مات . . »

واطرق قليلا ثم مشى الى الباب وفتحه .. ودعا الصغير للدخول مبتسما له ابتسامة حانية يذهب معها عن الصبي بعض ما في نفسه ، فلا يقرأ في عين ممدوح ما قرأ ممدوح مرة في عين ابيه الباردة .. تلك الحقيقة المؤلمة التي طالعته من ثنايا .. مات .. مات ابوك .

انتهى

فهرست

١٩٣/٢/٥٤/٢٠٠٠



الثمن : ليرة واحدة

مطابع دار الكشاف - بيروت